الهداية
مكتبة الطالبية الصغيرة الجيدة

أ. د. عَبْدُ اللهِ سَعِيد الجُعَيْدِي

عابر سبيل



عابر سبيل

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب م/ حضرموت ( ) ٢٠١٧م

عنوان الكتاب: عابر سبيل

المؤلف : د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي

الحجم : ١٤ × ٢٠ سم

الإخراج الفني : حسن أحمد بلجعد

صورة الغلاف للفنان التشكيلي : سالم محفوظ باسليم

التنفيذ الطباعي :

الطبعة الثانية

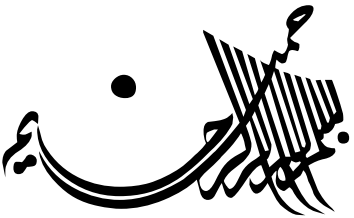
٢٠١٧م

حُقُوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَةٌ لِلْمُؤَلِّفِ

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف .

عابر سبيل

د. عبدالله سعيد بن جسّار الجعيدي



الإهداء

إلى من أزاح الأشواك عن دربي

ليمهد لي الطريق .. أخي الكبير (هلال)

تصدير

نجيب سعيد باوزير

هذا كتاب أزعم أنه يمثل إضافة إلى المكتبة الحضرمية والمكتبة العربية عموما، ومكتبة الصالحية للنشر والتوزيع تفخر أن يصدر هذا الكتاب عنها في طبعته الثانية، فهو كتاب فريد في نوعه، ولا أستطيع أن أقول عنه أكثر مما قاله في مقدمة الطبعة الأولى الأديب الأستاذ الدكتور عبدالله حسين البار، فقد أبدع وأجاد في تبيان خصائص ومزايا الكتاب.

لقد طلب مني مؤلف الكتاب الصديق الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي أن أكتب تصديرا للكتاب بمناسبة صدوره تحت اسم دار النشر التابعة لي (الصالحية)، وأنا أشكره أولا على إيثاره الصالحية بهذا الشرف، وقد أعدت - لهذا الغرض - قراءة فصول الكتاب فاستمتعت بهذه القراءة وكأنني أقرأه للمرة الأولى.

فالكتاب على الرغم من أن كاتبه شخص أكاديمي متخصص في التاريخ، إلا أن كتابه هذا - ومثله الكتاب الذي سبقه: (أوراق مكلاوية) - يدخل في خانة الأعمال الإبداعية، ولا غرو أن يلمس فيه هذه الناحية كل من قرأه وتكلم عنه من النقاد والمهتمين. وقد أحسن صنعًا الأستاذ الجعيدي إذ اكتشف في نفسه هذه الموهبة الأدبية وذلك، كما أعلم، من خلال علاقته وصداقته بثلة رائعة من الأكاديميين ذوي الاتجاه والتخصص الأدبي، على رأسهم الأخ الدكتور سعيد الجريري، والأخ الدكتور عبدالقادر باعيسى، الذين أقنعوه بكتابة عمود ثابت في صحيفة (آفاق حضرموت الثقافية)، وهو العمود الذي حمل اسم: (أوراق مكلاوية). وإن يكن قد سبق للأستاذ عبدالله أن نشر بعض الكتابات المشابهة في منابر صحفية أخرى كانت تصدر في المكلا، إلا أن التزامه بكتابة هذا العمود في مجلة ذات اتجاه ومستوى مشهود بهما لها ربما هو الذي جعله يتجه أكثر إلى تغليب الصبغة الأدبية السردية على مقالاته هذه، التي بدأها

بعمود يحمل عنوان (سكين القعيطيين)، وهو عنوان يشي مباشرةً بما يخبئه هذا اللون من الكتابة في ثناياه من عوالم الدهشة والسحر.

وكما كان هذا المقال الذي أشرت إليه للتو فاتحة عموده الثابت في (آفاق حضرموت الثقافية) فقد جعله الكاتب أيضا في صدر الجزء الأول من هذه المقالات التي أحسن كذلك بالمسارعة إلى جمعها وتنسيقها وإصدارها وإتاحتها للقراء بصورة عامة. ولكن الأستاذ الجعيدي انفلت، في الجزء الثاني هذا من مقالاته، وله الحق، من سيطرة الهاجس المكلاوي للعمود الأصلي ليتيح لنفسه مجالا أرحب من حرية الحركة والتنقل بين محطات مختلفة من حياته ومجتمعه يتناولها بقلمه وعينه الراصدة والشغوفة بما يعتمل ويضطرب في هذا المجتمع وتلك الحياة من شخوص وأحداث، فجعل عنوان هذا الكتاب (عابر سبيل) الذي أمتعنا أستاذنا الدكتور البار برصد أصداء تناص أو (تعالق) هذا العنوان مع أعمال أدبية وفنية ترسخت في ذاكرتنا الثقافية من عباس محمود العقاد إلى أسامة أنور عكاشة إلى أحلام مستغانمي!

لن أتحدث كثيرا عن محتويات الكتاب فها هو - كما قال الأستاذ البار - بين يديك... وانعم بما احتوته صفحاته من فصول. ولكن أشير فقط إلى أن المؤلف أضاف فصلين جديدين إلى هذه الطبعة من الكتاب، هما الفصل المعنون: (جولة في حصون حكام حضرموت وقصورهم)، والفصل المعنون: (حافتنا.. أسرار وخفايا)، وهذا الفصل الأخير بالذات، بل طريقة الأستاذ عبدالله كلها في التقاط الأحداث ورسمها بريشته البارعة خفيفة الدم، تذكرني بصنيع الأستاذ القاص الحضرمي عبدالله سالم باوزير - رحمه الله - في الجزء الأخير خاصةً من سيرته الذاتية (أنا والحياة)، الذي يحمل عنوان (شخصيات في حياتي)، فالكاتبان يتشابهان في وصف الشخصيات التي عايشاها عن كثب، خاصةً تلك التي تجبرها ظروف حياتها على إتيان تصرفات غريبة ترسم لهم عند الناس صورة معينة ربما كانت خادعة أو زائفة في بعض الأحيان. وللأستاذ باوزير من هذا اللون قصة جميلة عنوانها (زمن الحاج مدهش)،

والغريب أن الكاتبين المبدعين يكادان يتشابهان في التقنية التي استخدماها في افتتاح واختتام نصيهما، إذ يكرران في النهاية نفس الصورة التي جاءت في البداية، وهي صورة ترسم لوحة لمشهد الحارة أو المكان الذي دارت فيه الأحداث، غير أن الجعيدي يجعل زمن التقاط المشهد بداية يوم جديد، بينما يجعله باوزير نهاية يوم آخر، فالجعيدي يعيد وصف المشهد بنفس الألفاظ ونفس الصياغة التي نكتفي بنقل جزء منها، إذ يقول: "... وفي المقاهي الشعبية المكلاوية يُسمع أصوات عمال البناء في مدة احتسائهم الشاي المخلوط بالحليب قبل انصرافهم إلى أماكن عملهم. في هذه الأثناء غالبا ما يكون عبد نصيب في قمة نشاطه وحيويته، أو هكذا يبدو للناظرين.." . أما باوزير فينوّع في الصياغة، والصورة التي يرسمها هي من مدينة عدن في الخمسينيات من القرن الماضي، فيقول في بداية قصته: ".. وكنت أبدأ عملي في السابعة صباحا ثم لا أعود إلى المنزل إلا في وقت متأخر من الليل، وقد تحولت شوارع عدن

بأكملها إلى غرفة نوم واسعة صُفّت عليها مئات الأسرّة...".

ويقول في نهاية قصته التي تعبر، أي النهاية، عن الأمل في يوم جديد مختلف، ما زلنا نحلم به – في حضرموت والجنوب – حتى يومنا هذا، ويا للعجب والأسف! يقول القاص الكبير: ".. وأخذت أخطو إلى المنزل متخذا طريقي بين تلك الأسرّة التي تهيأ أصحابها للنوم لاستقبال يوم جديد مليء بالأحلام والآمال، يوم لا بد وأن يأتي ليريح تلك الأجسام المنهكة بعد طول عناء، يوم تظلله الحرية والعدالة."

تقديم

أ.د. عبد الله حسين محمّد البار

– ١ –

قصدني الأخ العزيز الأستاذ الدكتور عبد الله سعيد الجعيدي لأخطَّ له كلماتٍ في سطورٍ تكون بهوًا لعمارته الإبداعية الموسومة بـ(عابر سبيل)، وهو كتابه الثاني في سلسلته البديعة التي اختار لها عنوان (مكلاويات). والدكتور الجعيديّ ممّن لا يحتاجون إلى تعريفٍ بهم ولا إلى تنويهٍ بما صنعوا، فهو من الكرام الكاتبين الذين يطالع ما يكتبونه القارئون حيثما وجدوه منشورًا. وهو هنا يواصل رحلته مع الكلمات ليصوغ منها رؤيةً للحياة، ويعرض فيها صورًا منها يستوي في هذا أن يكون جزءًا من سيرةٍ ذاتيةٍ، أو بعضَ ذكرياتٍ لأيّام خلت، ناهيك بصورٍ من حياةٍ (مكلاويّة) كالتي عرض صورًا من أشباهها في كتابه المذكور سلفًا، على أنّه لم يُخْلِ أقسام كتابه هذا من صفحاتٍ تنتقد ماضيًا ولّى، وحاضرًا حَلَّ،

وتستشرف مستقبلاً مؤمّلاً. ولكنّك لا يخفى عليك أنّ موقفه من الماضي لم يكن على رؤيةٍ واحدةٍ فتارةً هو راضٍ عن بعض ما أنجز فيه، وتارةً هو ساخطٌ على ما حدث فيه، ولم نجد له موقفًا بينهما يكون نتاجَ تأمّلٍ هادئٍ لا ينأى عن موضوعيّة المؤرِّخ وضبط العالِم المحقِّق المدقِّق في تفصيلات الموضوع.

وعنوان الكتاب الجديد دالّ، وينبئ عن حسّ أدبيّ واعٍ بقدرة الاستخدام اللغويّ على إنتاج الدلالة. وهو يتكوّن من مفردتين نكرتين (عابر) و (سبيل) أضيف بعضهما لبعض إضافةً لم ترتق بهما إلى تخوم المعرفة، لكنهما يقعان خبرًا لمبتدأ هو (المؤلف) نفسه، يستوي أن يجيء المبتدأ مؤخرًا أو يتقدم على الخبر. والمؤلّف هو المرسل الذي يتوجّه بأحاديثه المرقومة في ثنايا الكتاب إلى مخاطبٍ ما. وهنا جملة من المتقابلات الضديّة جاءت في بنية (الاحتباك) كما يذكر أصحاب (بديع القرآن).

أوّلها أنّ (المرسِلَ) "عابرُ سبيلٍ" يتنقّل من بلدٍ إلى بلدٍ، ومن فكرةٍ إلى فكرةٍ، ومن تجربةٍ إلى تجربةٍ، لا يكاد يقرّ في مكانٍ ولا يقتصر على حال. فهو جوّابُ آفاقٍ لا يعرف للسكون في حياته معنى.

أما (المخاطب) فقارٌّ متبلّدٌ. والتبلّد هنا بمعنى المكوث في بلدٍ لا يكاد يبرحه إلى سواه، ومن هنا تجيء البلادة بمعناها المتداول، لأنّ ألفة المشاهد والمرائي واجترار الأفكار والمعاني يورث الذهن جمودًا ويعوق حركته وينفي عنه التجدّد، فتكون البلادةُ سِمَتَهُ. ولعلّه لذلك قال أبو تمام (اغتربْ تتجدد) :

وطولُ مقامِ المرء في الحي مُخْلِقٌ لديباجتيه فاغتربْ تتجدّدِ

لكنّ عابري السبيل السائحين في الأرض وفي الرؤى والأفكار هم الذين يساعدون الآخرين المتبلّدين – بالمعنى المعجميّ – على التجدّد، ويتيحون لهم سبل تجاوز لزوم مكانٍ واحدٍ بعينه إلى الانسياح في شتى الأماكن والبقاع، وذلك من خلال تدوينهم مشاهداتهم وصور الحياة في ماضيها وحاضرها أنّى كانت وحيثما وجدت. ولذلك تكتسب مثل هذه المؤلَّفات مكانة خاصة في قراءات القرّاء. فهي سبيلٌ إلى التثقّف شأنه شأن الترحّل والاغتراب تمامًا بتمام.

هذه واحدة. أما الثانية فهي أنّ (المرسِلَ) مفردٌ أما (المخاطَبُ) أو قل (المتلقي) فجماعةٌ هم القرّاء الذين سيقع الكتاب بين أيديهم

فيطّلعون على ما احتواه من فصولٍ متنوّعة التكوين والاتجاه. وإذا كان هو – أعني المؤلِّفَ – عَلَمًا معروفًا ومُدْرَكًا بهُويّته فهم مجهولون لا يكاد يعلمهم إلا الله. وهذه من مفارقات العملية التأليفية في كل زمان.

وهناك ثالثةٌ أخرى. وهي تتعلّق بتعالق عنوان الكتاب (عابر سبيل) مع عنوانات أعمال أدبيّة أخرى. وفي هذا الصنيع مفارقةٌ أخرى من حيث إنّ المؤلِّف في الأصل مؤرِّخٌ لا يشغله الإنشاء الفنيّ بمعناه الأدبيّ ولكنه أظهر رشاقة في الكتابة تتماهى مع أدبية اللغة كما يتحدّث عنها دعاة الأسلوبية ومنظروها، وهو ما سنجلوه لك لاحقًا، فاصطبر عليها قليلاً.

وتعالق النصوص –إذا عددنا العنوان نصًّا كما يعدّه بعض العارفين بعلم العنوان – يقتضي آليتين هما الاستدعاء والانزياح. أمّا من جهة الاستدعاء فعنوان الكتاب يستحضر عنوان ديوان شعر للأستاذ عباس محمود العقاد هو (عابر سبيل)، كان العقاد يراه صورةً من صور التجديد الشعريّ لأنّه كان يتلقّط فيه صورًا من

الحياة العصريّة ويدعها تتكلّم عن نفسها جمادًا كانت أو بشرًا في أوضاع متنوعة.

لكنّ هذا الاستدعاء لم يُلْزِم الكاتبَ الجعيديّ بالنّظم، ولا محاكاة العقاد فيما أتى فانزاح عن صنيعه ليكتب ما أبدع نثرًا، ويمزج فيه بين تجارب متنوّعة في الحياة لكنّها لا تتجاوز التجربة البشرية إلى تجارب الحياة العامة مثلما نجد في بعض قصائد العقاد في ذلك الديوان كقصيدته (السلع المكدسة في الدكاكين يوم العطلة).

كما أن عنوان الكتاب يستحضر عنوان عمل أدبيّ آخر غير مكتوبٍ ولكنّه مرئيٌّ، وهو المسلسل المصري الموسوم بـ (عابر سبيل) من تأليف الأستاذ أسامة أنور عكاشة، ومن تمثيل نخبة من كبار الممثلين المصريين وحسبك بالفنان عبد الله غيث مثلاً شرودًا من أولئك الأعلام وقد عُرِضَ المسلسل حلقاتٍ متفرّقةً منتظمةً في عقد الثمانينيّات، وهو ذو أبعادٍ رامزةٍ يعالج المؤلف من خلال أحداثه وشخصياته جملةً من المواقف والرؤى. وتلك معالجةٌ سرديّةٌ تدلّ على عمقٍ في الرؤية وبراعةٍ في الأداء.

وهنا كما هو هناك ينزاح المؤلِّف بعنوان كتابه عن دلالة عنوان المسلسل في إطار التقابل بين المقروء و(المرئي / المسموع)، والتقابل بين بنيةٍ حكائيّةٍ تتضمّن حدثًا وشخوصًا تنقلّب بهم المواقف والرؤى، وبُنًى حكائيّةٍ تتعدّد اتجاهاتها من سيرةٍ ذاتيّةٍ وذكرياتٍ شخصيّةٍ ومراءٍ بشريّةٍ متنوعةِ الصور يرسمها المؤلّف بدقّه.

وهناك عملٌ ثالث يمسّ عنوان الكتاب بطريقةٍ ما ولكنّني لن أعرض له وحسبي الإشارة إليه من باب الافتراض أنّ أحدًا سيذكره وأعني به رواية (عابر سرير) فهو قريبٌ من قريب.

هذه النواتج الدلالية التي يشفّ عنها عنوان الكتاب تنبئ عن إدراك واعٍ بأهمية العنوان عند صناعة الكتاب، وهو ما يدرك شأنه المبدعون من المؤلفين والكتّاب.

يتراسل مع هذا ما اشتملت عليه عنوانات فصول الكتاب من تناصّ مع نصوصٍ أخرى مستدعاة من عالم الأدب والثقافة بمعنييهما الواسعين العميقين.

وإنّ نظرةً سريعةً لعنوانات الفصول تتيح للمرء إدراك ذلك. وخذ أمثلةً شاردةً: على مشارف الخمسين، وهو يستدعي عنوان

كتاب (على مشارف الخمسين) للشاعر صلاح عبد الصبور. وهو سيرةٌ ثقافيّةٌ له ولجيله بعد سيرته الشعريّةٌ الموسومة بـ (حياتي في الشعر). وأصل كتاب عبد الصبور جملةٌ من المقالات بدأ بنشرها في مجلة (الدوحة) مطلع عام الثمانين ثم انقطعت بموته المفاجئ. وقد جمعت في كتيبٍ صدر عن دار الشروق بمصر. ثم ضمّتها مع أخرياتٍ من أمثالها الأعمالُ الكاملة التي صدرت عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

وعنوانٌ آخر (من يوميات مدرّس في الأرياف) وهو يستدعي عنوان رواية توفيق الحكيم المشهورة (يوميات نائب في الأرياف) وما عليك من حرف الجر (من) فهو للتبعيض الذي يلائم حياة المؤلف وأيام اشتغاله بالتدريس في مديرية حجر في أعوام الثمانينيّات.

أما (بشيش عا أم اللبن، وأبو قمر .. الله الله في الأمانة) فهي نصوصٌ محضاريّةٌ لا تخفى على القارئ العادي ناهيك باللبيب المتوسّم.

أمّا (أقمار حافتنا) فيتناصّ مع عنوان رواية نجيب محفوظ الشهيرة (أولاد حارتنا). وهو تناصّ يقوم على التقابل الضدّيّ من

حيث إنّ نواتج الخروج على قيم الدين، والتمرّد على منظوره السليم للحياة في رواية محفوظ قد حلّت محلَّها نواتج الائتلاف مع القيم السامية، وسماحة الخلق، وتعاضد الأفراد في المجتمع امتثالاً والتزامًا بجوهر منظور الدين للحياة.

وقد يلجأ في العنوان إلى التناصّ مع الأمثال العاميّة كما في (اسأل مجرب ولا تسأل طبيب) و(الحذر ولا الشجاعة). والتناصّ ممّا عرفه الأدباء من قديم الزمان، ومن قبل أن يقف عليه أصحاب المناهج والنظريات النقديّة ما بعد اللسانيّات ليقعّدوا له ويقنّنوا صوره. وما ذاك إلا لأنّ الأدباء يدركون أن ليس في مقدور الأديب أن ينشئَ أدبًا من عدمٍ ولكنّه يبني قولاً على قولٍ، ويولّد نصًّا من ثنايا نصٍّ. فعل ذلك أبو تمّام في الشعر، كما فعله شيكسبير في المسرحيّة، وفعله جيمس جويس في الرواية. ولم يكن الغيطاني ولا بنسالم حِمِّيش ببعيدين عن ذلك الصنيع فهما في السَّمت الأعلى من الاشتغال على هذه الآليّات من آليّات إنتاج الدلالة وتشكيل النصّ.

وبمثل هذا الصنيع يبدو (المؤرخ) – وهو هنا الدكتور الجعيديّ– أديبًا، فيخلع جبّةً ليلبس أخرى، وحسنًا فعل.

ذكر الذاكرون أن الأستاذ الجليل والعالم الكبير أحمد أمين حين كتب سيرته الذاتيّة وجمعها في كتاب بعنوان (حياتي) قرأ العقاد الكتاب وعلّق عليه، وكان ممّا وصف به أحمد أمين أنه في كتابه هذا أديبٌ وفي سواه عالِمٌ ومؤرّخٌ. فسرّ أحمد أمين بهذا الوصف لأنّه أخرجه من عالَمٍ تنضبط فيه اللغة بقيود الوضوح والإبانة إلى عالَمٍ تتشكّل فيه اللغة فتصنع عوالمَ من التخييل مترامية أبعادها.

وأحسب أنّ كتاب د/ عبدالله سعيد الجعيدي هذا قريبٌ من قريبٍ، وهو إلى روح الأدب ولغته أدنى صلةً من كتبه الأخرى وإنتاجه العلميّ في دراسة التاريخ.

- ٢ -

يتألّف الكتاب من خمسة أقسامٍ، تشتمل الأقسام الثلاثة الأولى على بعضِ شيءٍ من سيرته الذاتية طفلاً يدرج في كنف أبويه وعطف ذويه، ويافعًا يدرس ما يدرسه أترابه في مدارس زمانهم التي اختلفت منهجًا ومعلِّمًا وطالبًا متلقيًا للعلم عن مدارس أبنائه وأبناء أترابه في هذا العصر القائم.

وليس للقارئ أن يشتطَّ ويحسب أنّ الحال متقدمةٌ إلى الأحسن كما تقتضي سنن التطوّر في تاريخ الأمم بل لعلّها ذاهبةٌ إلى النقيض. وفي عرض الدكتور الجعيدي شيءٌ من المرارة لا تخفى ولكنها تنبئ عن سوء ما آل إليه مصير الأجيال في هذا الزمان.

ولم يخل حديث السيرة في الكتاب من وعي طارئ بالسياسة والموقف منها. وهو ما لم يكن نابتًا من تلك السنوات إلا بطريقةٍ بعيدةٍ عن الوعي وإدراك أبعاده المناقضة للسياسة القائمة يوم ذاك. وهذا بسبب أنّ القائمين على الأمر يومها لم يحرصوا على تفعيل الوعي السياسيّ لدى الشباب إلا من فتحةٍ ضيّقةٍ هي فتحة الانتماء المفضي إلى الالتزام والعكس صحيح، فانشغل الشباب يومئذ بكلّ شيءٍ إلاّ الفكر السياسيّ وما قرب منه أو بعد عنه فجاء جيله مفرّغًا من ذلك الوعي حتى أظلّهم عهد انفتحت فيه شهوات التفكير في السياسة ومشكلاتها فاجترّ بعضهم صور الماضي، ووقف حائرًا منها أيرفضها لسوء ما فعلت في قديمها المنصرم، أم يقبلها ويجلّها قياسًا على ما أفرز الحاضر الحالّ من واقعٍ بائسٍ مهترئٍ مذمومٍ على جميع الأصعدة كما يقولون.

ناهيك بمتفرّقاتٍ من وقائع حياته فيها ما يمكن أخذ العبرة منه من حيث هو تجربة حياة، وفيها ما هو دون ذلك فظلّ خبرًا عن ذاتٍ ولم يتجاوز ذلك. وإنّما أقول هذا لأنّنا حين نتطلّع لقراءة سيرةٍ مّا إنّما لنقع على العام في الخاصّ، أمّا حين يطغى الخاصّ على العام ويفسّره فإنّ السيرة تتحوّل إلى ما لا يسمن ولا يغني من جوعٍ.

بيد أنّ في الكتاب قسمين هما من أجمل ما يمكن أن يقرأ المرء في كتابٍ يؤلّفه صاحبه في هذه البلاد، وهما القسمان الرابع والخامس.

أمّا القسم الرابع فغلب عليه التقاط ظواهر من انقطاع الدولة عن النهوض بمتطلّبات وجودها في حياة الأمّة بتأمين حقّ المواطن في الحياة، كما تجده في (الضامن وجمهوريّة الجمهوريّات...). وهو لم يُخْلِهِ من رسمِ صورٍ بالكلمات لوجوهٍ يعرفها أهل المكلا كالشيخ بن عبيّد لكنّها توارت عن الذاكرة لمّا واراها الموت في الثرى، فحفظ لنا بما صنع بعض ذكراها وأحيى وجودها في وجدان من عرفوها. وهذا نازعٌ في التأليف يتداخل فيه إحساس المؤرّخ بالهامشيّ مع نظرات الأديب الراصدة لحركة الإنسان وتجسيدها في صورٍ دالّة على الموقف الجماليّ المنشود.

على أنّ القسم الخامس – وقد خصّ به أهل حافته – أكثر أقسام الكتاب امتلاءً بالدفء والمحبّة والاشتياق إلى الزمن الجميل الموغل في الغياب، وكأنّه باستحضاره على الورق يستعيد سنينه التي انصرمت، ولحظاته التي ثوت في الذاكرة لتشعّ عذوبةً لا تذوب، وهناءً لا ينتهي، ونعيمًا باقيًا ما بقت النفس في هذا الوجود.

– ٣ –

وعلى الرغم من كون هذه المقالات منشورة في بعض الصحف والمجلات، وقصد بها كاتبها مخاطبة القارئ العاديّ قبل القارئ المختصّ فإنّها صيغت بعبارةٍ أدبيّةٍ مشرقة البيان تدلّ على اعتناءٍ وصنعةٍ لا تخليها من شعريّةٍ يعرفها المرهفون من الأدباء، حتّى ليمكن الحديث هنا عن خصائص أسلوبيّة كالتي نتحدّث عنها حين نعرض لدرس نتاج شاعرٍ من الشّعراء، أو ناثرٍ من الكرام الناثرين. وحسبك دليلاً على ذلك استخدامه للاقتباس القرآنيّ وتوظيفه على نحوٍ من الدلالة والجمال، والشواهد عليه جمّة، ولا ضيرَ من الإشارة إلى قليلٍ منها للتعريف ليس إلاّ. قال: "واستطاعا أن يفلتا من

مخالب الأسدين، ولا يفلت من مخالب الأسد إلا ذو حظٍّ عظيم". وقال في موضع آخر: "فهم أولى بأن يأتيهم الناس أذلّةً خاضعين، لا يتكلّمون إلا من أذن لهم (الحجاب)، وعليهم أن يصبروا ولو مسّهم نصب من عذاب". وفي موضعٍ ثالثٍ يقول: "ومنهم صنفٌ من علماء الدين نذروا للشيطان صومًا لا يكلّمون إلاّ مسئولاً ويقولون له قولاً معسولاً". ومن هذا الشّاهد تتولّد في ذهني خصيصتان رأيت الدكتور الجعيديّ يستخدمها ليطرّي أسلوبه بنغمٍ موقّعٍ بإحداهما وهي بنية السجع بين الفواصل، ويثريه ببعض الحركة التي يتمخّض عنها استخدام المفارقة. فالأصل في نذر الصوم عند زكريّا ومريم أن لا يكلّمان إنسيًّا أنّه كان لله سبحانه، "إنّي نذرت للرحمن صومًا فلن أكلّم اليوم إنسيّا"، ولكنّه قلب المنظور فجعله للشيطان، ثمّ أحدث الاستثناء انزياحًا لأنّ الامتناع عن الكلام يشمل كلّ أحد ممّا يعرفان، لكن من قصدهم الجعيديّ يعرفون من يكلّمون ومن لا يكلّمون. والمفارقة تحدث في ذهن المتلقّي هِزّةً لأنّها تجيئه بما لا يتوقّع، قال: "دخل الموظّف قائلاً:

من...؟ قلت: أنا...، قال: عليك دفع مبلغ وقدره... حقّ...، ومبلغ وقدره... حقّ...، وباطل وقدره... حقّ...". وهنا تكون المفارقة فالحقّ لا يجتمع والباطل إلاّ في وعي أديبٍ أدرك من أسرار الحياة ومتناقضاتها ما ملأه غيظًا وفاض سخريّةً على الورق. وأشهد لقد كان الجعيديّ أديبًا في كثيرٍ من صفحات كتابه هذا. ولماذا تراني أثقل عليك بالشّواهد وهذا الكتاب بين يديك قلّبه ما شاء لك الحظُّ وانعم بما احتوته صفحاته من فصولٍ وستجد قليل ما استشهدت به هنا كثيرًا هناك لا يحصى، وسواه أشياء أخرى من خصائص الأسلوب الذي يميّز أديبًا من أديبٍ، وكاتبًا من كاتبٍ.

وبكلمةٍ أختم بها هذه السطور أقول: إنّ في الكتاب أسلوبيّةً تتجاوز خطاب التاريخ الذي عُرِفَ به الدكتور الجعيديّ لتوغل في خطاب الأدبيّة كما علّم جاكوبسون الآخرين أبعادها.

المكلا في ١٤٣٤/١١/٤هـ
الموافق ١٠/ ٩/ ٢٠١٣م

أولاً : من صدى السنين على مشارف الخمسين

مضت السنون، لم يبق إلا القليل، إن بقي قليل، ها هو نصف قرن من الزمان يغادر إلى غير رجعة تاركًا في مفترق طرق بعضًا من ألم وفرح... وكثيرًا من أمل ورجاء وغموض... لم يكن بوسعنا اللحاق به لكننا حاولنا استراق السمع من تدفقاته الراحلة علّها تحرك الذاكرة، وتجود بزاد، الزاد الذي ينير ما تبقى من طريق...

البداية... ترددات ناصرية :

عبرت الثورة المصرية (يوليو/ تموز ١٩٥٢م)عن أحلام الأمة العربية وتطلعاتها نحو الحرية والحياة الكريمة ، وكانت إذاعة (صوت العرب) من القاهرة الشريان الحيوي الذي أسهم في توحيد المشاعر، وفي رسم ملامح مضيئة لمستقبل يكون فيه للإنسان العربي مكان لائق يستحقه. لهذا خرجت الشعوب العربية خلف قياداتها

من الثوريين وأمنتهم على حمل أمانة التغيير. كان الوالد كغيره من شباب ذلك العصر يتابع حركة الأحداث ويرى في الأفق القريب والبعيد ملامح أيام جديدة يظن أنها بيضاء، وفي زمن كانت فيه ما يعرف بـ (التابعيات السعودية) توزع استماراتها برخص التراب شدَّ الوالد الرحال إلى الوطن، وترك بعض حقوقه في الشركة التي يعمل فيها حتى تسوي بعض أمورها.

وآتت الثورة المصرية (العربية) أُكلها في أواخر خمسينيات القرن الماضي وبداية الستينيات، وبينما تداعت عروش سبحت في التيار المعادي للقومية العربية، وتحررت شعوب من قبضات استعمارية غاشمة ونجح اليمنيون بثورة سبتمبر/ أيلول ١٩٦٢م في استبدال النظام الملكي الإمامي إلى نظام جمهوري، وأخذ اسم الزعيم جمال عبدالناصر يملأ الآفاق جنبًا إلى جنب مع أسماء الزعماء المحليين في الأقطار الثورية، وفي الجمهورية العربية اليمنية الفتية لمع اسم الزعيم عبدالله السلال، وفي لحظات عاطفية قوية شرع الكثير من الناس بتسمية أبنائهم بأسماء القادة والمناضلين على الصعيد القومي والقُطري

مثل: جمال، وعبدالحكيم، وصلاح، وخالد، وقحطان، وأضيف لقب السلال لمعظم من سمي باسم عبدالله.

وهكذا تركب اسمي (عبدالله السلال) واختفى السلال (الحقيقي) من المسرح السياسي ليبقى لقبًا لرجل ملازم لي أسمع عنه ولا أعرفه إلا بعد حين من الدهر، ثم ما لبث هذا السلال الذي تسلل إلى اسمي يختفي هو الآخر من أفواه الأصدقاء حتى أكاد أنساه إلى أن تذكرني به بعض نسوة المدينة من جيل الوالدة عند نطقهن له بلهجتهن المكلاوية الممزوج فيها الفضول بالتساؤل والمعبر عن الدهشة من ذلك السلال الصغير الذي أصبح كائنًا بملامح جديدة.

نحيب المدارس :

وقبل دخول هذا الكائن المدرسة كان عليه أن يقضي سبع سنوات؛ خمسة تنتمي للعهد السلاطيني، وسنتان للعهد الثوري بتصنيفه اليميني الرجعي. وعندما بدأ عامه الدراسي الأول في العام ١٩٦٩-١٩٧٠م كان خط الثورة في الجنوب يمضي بعنف ثوري، لهذا نحن من جيل الثورة بطعمها اليساري الغريب، ونزغها

الفكري الجامح. كان أمام الثوار مهمة صعبة للغاية تتمثل في السعي لصبغ المجتمع بالصبغة الاشتراكية، ونشر الفكر والرؤية المادية نحو الحياة في المجتمع، ومحاولة ربط النظرية بالتطبيق.

ينتمي جيل المعلمين الذين تتلمذنا على أيديهم إلى مرحلة التعليم في حضرموت التي يمكن وصفها بالذهبية. وإذا كان معظم هؤلاء المعلمين لا تتجاوز مؤهلاتهم المرحلة الوسطى فإنهم من الناحية المهنية تتجاوز إمكانياتهم العلمية الخريج الجامعي في وقتنا الحاضر، وخلال مرحلة التعليم الابتدائي اتخذ المعلم وضعه الصحيح ومكانته الموقرة وهيبته اللائقة، وكان للمدرسة بكل منظومتها وأنشطتها حضور قوي ومؤثر، ولهذا فإن وهج المرحلة السابقة كان حاضرًا وأصاب ما أصاب من نوره في هذا الجيل (جيل الثورة).

كان شغل أصحاب الحكم الجديد الشاغل هو مواجهة التحديات التي فرضت عليهم وتلك التي وضعوا أنفسهم فيها، والحفاظ على الكيان السياسي الوليد، وهذا الوضع الذي يمكن وصفه بالمأزوم ألقى بثقله على مفاصل المجتمع وكان للمدرسة نصيب من ذلك،

فكان على هذا الجيل ترديد الهتافات الثورية في الطابور الصباحي في تجمعات محددة للمدارس المتقاربة، ثم على التلاميذ الانطلاق إلى مدارسهم فيما يشبه المارشات العسكرية، ولاسيما عندما يردد هؤلاء التلاميذ وهم في طريقهم إلى مدارسهم الشعارات الحماسية التي ترج ما حولها مثل: « بغينا حقنا ولا بغينا شي باطل.. مع الصياد لا هز رأسه بانقاتل»، وترديدهم «والله يا شباب ما بتفيد الإجابة إلا بالنار والمدفع والدبابة»، وكان البعض يستبدل بـ «النار والمدفع والدبابة» « الفول والروتي والمخبازة »، ولأن هذا الاستبدال بريء ومحدود يمر في عصر لا يمر ما دونه إلا ويتبعه عقاب...

ثم أخذت هذه الثقافة الثورية تتسرب في المدارس بشكل لافت حتى هيمنت عليها في مراحل لاحقة، حيث برزت سلطة السياسي على مهنية المدير المستقل، ثم زحف إلى صفوف الدرس غرباء عن التربية والتعليم، وتبوأ أهل الثقة بعض المناصب التربوية المهمة على حساب أهل الخبرة والكفاءة، ومع هذا تماسك التعليم إلى الحد الأدنى ولكنه لم ينهر، على أننا يجب أن نذكر في هذه الالتفافة أن

التوسع في التعليم ما قبل الجامعي وتهيئة الظروف لترسيخه هو مما يحسب لصالح ذلك العهد.

في العهد الجمهوري الثاني تداخلت أمور وتقاطعت أمور ومضى معظمها لصالح التراجع، وأضحى أشباه المتعلمين أبرز مخرجات المدارس، وصار الذهاب للمدرسة في الغالب لغرض الذهاب للمدرسة والحجز المؤقت، بل تحولت المدارس إلى مكان مثير للشبهات عند بعض رجال الأمن، وقد لاحظت ذلك في أواخر تسعينيات القرن الماضي عندما كنت مدرسًا في (ثانوية المكلا) للبنين، وفي أثناء متابعتي لواجبات الطلاب اكتشفت أن طالبًا – من خارج محافظة حضرموت – مهمته فقط الاستماع إلى ما يقوله المدرسون، وقد اعترف لي بهذه المعلومة أمام إصراري على كتابة واجباته مثله مثل بقية زملائه!!! فكيف يدخل المعلم الفصل وكل أنفاسه وزفراته مراقبة ومرصودة؟ بل ومحاسب عليها، ثم ماذا بقي له بعد هذا في الصف؟؟ إن فاقد الشيء لا يعطيه.. ولعله من السخف والسذاجة لو تساءل البعض: لماذا نعود إلى الوراء؟؟

صخب السبعينيات :

كانت تلك السنوات عقدًا ثوريًا بامتياز... بالرصيد النضالي والشرعية الثورية حكم الثوار، وبالشرعية الثورية اقتتلوا فيما بينهم، وبالأرصدة النضالية تكتلوا على بعضهم، وتميزوا عن غيرهم، وبهذه (المستحقات) فرضوا مفاهيمهم للحرية والعدالة والديمقراطية، وصنفوا الناس حسب مراكزهم الاجتماعية ومكانهم في سوق العمل، فهذا إقطاعي، وذاك شبه إقطاعي، وهناك الكمبرادوري، والكهنوتي، وهناك البائدون والعملاء، والثورة المضادة... أما تصنيفهم لبعضهم البعض فبين اليمين واليسار، وتضاف هنا أو هناك كلمات الرجعي، والمغامر، والانتهازي... ولأن معظم قياداتهم كانت تمر بمرحلة المراهقة السياسية والثقافية فقد جادلوا وتجادلوا كثيرًا.. وجادلوا، ثم حاولوا وحلموا ببناء مجتمعات أكثر عدلًا بعد قرون من زمانهم، ولأجيال بعيدة، وفي فوضى الجدل غفلوا عما تحت أقدامهم (والثورة تخدمنا ونحن يجب أن نخدم الثورة).

كان لانتزاع الثوار السلطة من يمينهم الرجعي، والأجواء غير الصحية لتكتلات رموز الحركة الوطنية في الجنوب قبل الاستقلال وقبيله، وما جرى بينها من تراشقات واغتيالات واشتباكات، والرغبة الجامحة في الاستحواذ على السلطة، وأسباب أخرى... أن جعل يسار الجبهة القومية يقبض بقوة غير منضبطة على الأوضاع في معظم سني هذا العقد، ربما يقول قائل إن التجاوزات عند التغيير الثوري للأنظمة سمة إنسانية شهدتها الكثير من الشعوب؛ وهذا قول صحيح ولكن تختلف الشعوب باختلاف سنوات التجاوزات (الثورية)، ومدى اتساع أو ضيق عناصر الاستهداف.

في مجتمع تقليدي بسيط لا يستحمل التنظير الفلسفي المادي، وخالٍ من البناء الرأسمالي وشبه الرأسمالي، أُريد له أن يكون اشتراكيًا؛ لهذا استحدثت له مرحلة سميت (مرحلة الثورة الوطنية)، ولم يكن اليساريون يلعبون بل كانوا مؤمنين بما يفعلون صادقين فيما يقولون؛ لهذا جاءت القرارات الثورية مثل: انتفاضات الفلاحين (الأرض لمن يفلحها)، وقانون التأميم للشركات والبنوك والمساكن،

وكل ما يحمل شبهة الاستغلال. وأفرز هذا المنحى الثوري المحتدم ظروفًا وأوضاعًا جديدة، فعلى الصعيد العربي والدولي زادت عزلة الثوّار، وعلى صعيد الوطن – وبعد أن سكت الغضب عن القرارات– توقفت عجلة الاقتصاد، وغابت الكثير من السلع من الأسواق، وسقطت عائلات تجارية، واضطلعت الدولة بكل الأدوار؛ ومن ضمنها دور التاجر والمالك الوحيد، وبدأت أصناف من الناس ترحل من الوطن أو تفكر في الرحيل. «وسالمين زينة بلادي سالمين زينه وبتزين».

وهكذا باعت الدولة كل شيء من حبات الأرز إلى حبات البيض، ومن الأحذية إلى الملابس، ومن الغذاء إلى الدواء، ودخلت بقوة لعبة التحدي مع (الرجعيين المجاورين)، بل وبشّرت بالثورة في أراضيهم، وتحمل الناس السنوات العجاف على مضض. كان الغذاء موجودًا ولكن للعثور عليه لا بد من طابور ممدود، ولتنظيم وصوله إلى المستهلكين صرفت الدولة بطاقات عائلية يسجل فيها ما يستحق شهريًا من سكر وبيض وبعض ما أحلَّ الله.

وكما غابت أنواع من السلع، غابت أنواع من الكلمات، ولم يبقِ الثوّار إلا كلمة واحدة بلون واحد وعلى الجميع أن يدوروا حولها ومن أجلها، ولم يحسبوا للنظام السابق -الذي ثاروا عليه- حرية الكلمة التي منحهم إياها بل عدوها نقيصة ومن العهد البغيض، وأصبحت الحرية أن تمدح وتشيد بكلمتهم الوحيدة وتعشق لونهم الوحيد؛ لهذا سكتت الكثير من الأقلام، وسار المحايدون على خط من حذر، ومع هذا وجدت فرص للإبداع الثقافي بعيدًا عن هم السياسة والسياسيين.

وتأصيلاً للمبدأ الذي سار عليه الثوّار واهتدوا بهديه انتشرت الكتب الاشتراكية ذات المنابع الصينية والسوفييتية، وأقيمت المعاهد التي تدرس هذه الأفكار، وأرسلت البعثات تلو البعثات، وصرف لها الدينار بعد الدينار، وطغى هذا الهم على الهموم الأخرى، بل تحول إلى وسيلة للمزايدات، وفرصة للمناصب والترقيات، وصار أحيانًا الجهر بالسوء من العمل كشرب الخمر، والإفطار في شهر رمضان من الأصالة الثورية.

وكانت فرصة للمهمشين، ومن لا عمل له، ومن يشعر بالدونية في العهد البائد، أن تكون له في بداية هذه السبعينيات صولة وجولة، وفي هذه المدة برزت أسماء أثارت الرعب في المجتمع، وكانت الكثير من التهم جاهزة أدناها تدخل إلى السجن مدة من الزمن، وأعلاها تخرج من الدنيا من قرر عليه الخروج، وفي مشهد كهذا يكون من السهل تصفية الحسابات السياسية وغير السياسية، وفي مناطق محددة وحالات معينة استخدمت للقضاء على (أعداء الثورة) وسائل بشعة على مرأى من الناس «وعنف بالعنف، ولولا العنف الإقطاعي ما مات».

وقد نجح الثوّار على إحداث توازن في السلطة حافظ نظريًا على كيان الدولة الفتية، وعمليًا كان هذا الكيان يحمل في داخله مؤشرات تصدعه، فتعدد الرؤوس الكبيرة، والرغبات الدفينة في التقدم على الآخرين، والاستحواذ على ناصية الأمور، دفع بالرفاق إلى الاقتتال فيما بينهم. وغاب الرئيس (سالمين) ومعه المحسوبون عليه، بعضهم غاب من الحياة، وأكثرهم غابَ عن مناطق القرار والتأثير بعد أن

ضيق عليهم وعاشوا لحينٍ تحت ظلال الشك، وهكذا بدأت اليد اليسرى تعض يدها اليسرى، وتستعد لعضات وعضات...

كان الحكم قد خطا خطوات معقولة باتجاه ترسيخ المجتمع المدني، وكانت حضرموت أكبر مناطق هذا الكيان، وعدن الأكثر تطورًا، بوابتين رئيستين أسهمتا في مرور التحديثات المؤسسية بيسر. وإلى (أحداث سالمين١٩٧٨م) كانت التكتلات السياسية تقوم على الاجتهادات الأيديولوجية في إطار الفكر الواحد، وبتعزيز أو مساندة من القوى الاشتراكية (الصديقة) لهذا فإن سقوط سالمين وشلته يعني في ما يعني نهاية خط اشتراكي يستند إلى التجربة الصينية ويستقوي بها، ليبقى السند السوفيتي ومحوره هو المرجعية لرفاق ما بعد سالمين، ولأن دوران الصراع يكاد يكون سُنَّة سنَّها الرفاق على أنفسهم، عادوا في البحث عن سند محلي يعزز مراكزهم، وهكذا جاء الارتداد إلى المنطقة والقبيلة، وكانت أحداث يناير ١٩٨٦م تعبيرًا عن الصراع القبلي المغطى بأثواب أيديولوجية من طراز جديد.

لا بد هنا أن يعلم المناضلون الشرفاء الذين لم يشتروا بمواقفهم ثمنًا قليلًا أننا ندرك صدق نواياهم رغم عثرات الطريق، ونقدّر وفاءهم للوطن، وتضحياتهم بأنفسهم، وأموالهم، وراحة بالهم، لصنع غد جميل تنعم فيه الأجيال. ولا بد أن نشير إلى أننا لم نكن نسخر من شعاراتهم ولا من أفكارهم واجتهاداتهم، وكنَّا نتفهم صخب عصرهم، وحساسية أوضاعهم، وأن ما أسسوه في مجتمعاتهم من خير يحسب لهم، ولأنهم بشر فلهم وعليهم، ومن حق الناس معرفة عثراتهم لتتجنبها، وحسبهم فضل المحاولة. فمن حقكم أن نشير إلى الأمن الغذائي الذي وفرتموه لما هو ضروري حتى صار الحليب والقمح سلعة ينعم بها الإنسان والحيوان، ومن حقكم أن نشير إلى التطبيب المجاني والدواء المجاني أو الرخيص الذي كان في عهدكم، من حقكم أن نشير إلى اتساع التعليم، واستتباب الوضع الأمني رغم بعض التحفظات، ومن حقنا أن نعاتبكم على أخطائكم، ونتمعن فيها، وننتقدها، ومن حقنا أن نسامحكم، أو لا نسامحكم لأخطاء ما زلنا ندفع ثمنها، وبين حقنا وحقكم يظل حق

الأجيال القادمة علينا وعليكم. وبقي أن نقول إن النوايا الصادقة المخلصة لها كلمتها القوية في الشفاعة ومحل تقدير عند أهل التاريخ، أما الأعمال المبيتة بالنوايا المغايرة وبالأرصدة الربوية ستظل عارًا يلاحق أصحابها حتى يرث الله الأرض وما فيها، ثم تجد كل نفس ما لها وما عليها.

ضوضاء منتصف الطريق :

في حلقات الزمان تقاسمنا زمنين يكادان يكونان متساويين، ولا ندري أكان من حسن حظنا أم من عكسه أن نكون في أوله جيلًا للثورة (الأكتوبرية)، وفي ثانيه شبابًا للوحدة (المايوية)، والثابت أننا عشنا في الزمنين بنكهة جمهورية فيها كلمات متشابهة، ولكن بجغرافيا متخاصمة، وثقافة أقرب إلى التنافر منها إلى التقارب، وللحقيقة فالزمنان فيهما نظريًا من المبادئ والقيم القومية والإنسانية الكثير بحيث يستحقان الاحتفاء بهما، والتضحية من أجلهما، ولكن وقبل أن يخلق الله خلقًا أضاعوا الصلاة، برزت ثلة في أول كل زمن وثلة

في آخره سعت لِتُسَيِّر القافلة بخلاف ما سقط من أجله الشهداء، وعلى نقيض ما بشر به رواد التنوير، وعلى غير ما توقعه الوطنيون، وعلى خلاف ما حلم به المواطنون.

في أيام الزمن الأكتوبري الأخيرة حدثت زلزلات في الأرض الاشتراكية فاجأت العالم، وفي ومضات ذاب حكام، وانهارت دول، وتلاشت أفكار ونظريات، ظن أهلها كل الظن أنها حتم محتوم، ووصلت اهتزازات هذه الزلازل إلى جزيرة العرب وبالتحديد في أقصى جنوبها الغربي الذي كان باستطاعة قياداتها التماسك، ولكن أنواعًا من الطيور بشرت باهتزازات في طرف الجزيرة العربية الشمالي الشرقي، وبدافع الحذر الجمعي أو بدافع الخوف وبدوافع أخرى تمسك الأكتوبريون بما هو على شمالهم وصنعوا هزة الوحدة المايوية اليمنية، وذلك قبل ثمانين يومًا من زلزال (الوحدة العراقية الكويتية).

وهكذا تداخلت شهور الصيف والشتاء، وخلقت في بداياتها أجواء جديدة مفعمة بالأمل متحررة الأحلام عند طرف، ويقظة مشوبة بحذر من تقلبات الأيام عند طرف آخر، وفي هذه الأثناء

كانت حفلة تقسيم المناصب تقام على أحسن ما يرام، وبقايا من المهرجان تحكي قصة المهرجان ، وبينما تزحف الجيوش من كل شكل ولون لتحرير الكويت، كانت جيوش تزحف من أرض العروبة إلى (يمن مايو) لا لجرم اقترفوه إلا أن قال حكامهم لا لهذه الحملة، ولأنهم لم يقفوا مع المحررين وأصحاب الحق، اتهموا بمساندة المعتدين.

كانت الصواريخ العراقية تصل إلى أعماق إسرائيل ربما كانت ضعيفة التأثير، ولكنها وهي تسعى لخلط الأوراق وأطلقت في توقيت غير مناسب فإنها بحق أسعدت معظم العرب، وأربكت نظرية الأمن الإسرائيلي، وكما وصلت هذه الصواريخ إلى عمق أعداء العرب الحقيقيين، فإن الغزو العراقي للكويت أوصل العرب ولا سيما حكامهم إلى مرحلة من الاضطراب والتباغض والجراح التي لا تزال تفعل فعلها المثير للألم والمحفز للحرقة.

كان على القيادة اليمنية الجديدة تحمل أعباء ملايين القادمين، وأعباء تشكيل مؤسسات النظام الجديد، والبحث عن موارد تعوض

الانقطاع الانتقامي للمساعدات التي كانت لشريك الأكتوبريين في الوحدة المورد الأساس لمنظومة الحكم، وكان الشريكان قبل الشراكة مثقلين بالديون والهموم الداخلية. وهكذا في تراجيديا تاريخية باهتة التمّ التعيس على المتعوس، وفي عقد الشراكة اتفق التعيسان على أن يلتحم بينهما أفضل ما عندهما، وفي غياب الرؤية والمشروع الحقيقي ساد أسوأ ما لديهما. وهكذا بدأت تضطرب الأجواء وتملل أكتوبر الأكثر تضررًا وبدا يشعر بسخونة الصيف، ثم أخذ يحن إلى نسمات الشتاء.

وفي هذا المنتصف كانت توجد - وتحت علم موحد ثلاثي الألوان- قيادتان وعملتان وجيشان وثقافتان، كان منطق بعض السياسيين ولعله لا يزال «قتل وبيقع صلح» حسب اللهجة الحضرمية الدارجة، أي لندخل الأزمة أو المجهول ثم ستأتي الحلول التي غالبًا لا تأتي. ومعروف أنه في ظل ضعف شجاعة المواجهة تتفاقم المشكلات، وبعد حين من الزمن تتحول إلى أزمات ومعضلات. على أن الأمانة تقتضي القول إن الدافنين رؤوسهم في رمال السراب

كانوا يدركون ضرورات التغيير نحو الأفضل والأبقى لكنهم يرغبون في تغيير كل شيء إلا أي شيء يجعلهم يتغيرون.

كان واجبًا على هذا الجيل - وبعد أن غادر مقاعد الدرس الجامعية في أواخر الحقبة الأولى- أن يأخذ مكانه اللائق في ملحمة البناء كما خطط لها الأكتوبريون، إلا أن عاصفة المتغيرات التي شهدتها الجمهورية اليمنية الفتية أسهمت في خلق أوضاع فريدة بلون وطعم جديد وغير متوقع، وأجبرت على إعادة رسم ملامح الأشياء، والتدقيق في مسافات الطريق، والنحت في أعماق التاريخ، ثم أعقبت العواصف ريح شديدة توارى على إثرها دفء أكتوبر، واختفت نسمات مايو الحالمة، وسادت أجواء يوليو الساخنة على البلاد والعباد.

طلقات طائشة :

كانت (طلقة الشرعية) هي جديد القواميس السياسية في يمن يوليو، أما الطرف (المعادي) فقد تحصل على جملة من الألقاب، منها الفئة الخائنة والمارقة أو الانفصالية والمرتدة، وربما الكافرة. وبغطاء

لعلعات طلقات الشرعية بدأت الاستباحة المنظمة -وعلى مرأى ومسمع من الناس- لكل ما حسب من عهد دولة المارقين، كان مشهدًا غريبًا!!! هل الدولة كانت تنهب نفسها؟؟ وهل مخلفات المهزوم ملك لدولة غريبة وجغرافية بعيدة؟ ولماذا (شرعنت) المكافأة للمنتصرين بالنهب؟؟ لا نستطيع أن نجيب عن الآخرين المعنيين. أما نحن المتفرجين المهزومين كنّا على يقين أننا في عهد جديد تتداخل فيه المباحات مع المحظورات، والسارقون مع الفاتحين، والطامعون مع المتدينين، والمجاهدون مع بقايا الماركسيين، حتى فقدت طلقة الشرعية معناها اللغوي والفقهي وصارت تطلق على سبيل التنكيت والتبكيت لمواقف ومفارقات متنوعة، فعندما يسطو صديق على حق ما لصديق - على سبيل المثال- يسوغ ذلك بأن العصر عصر الشرعية.

لا بد أن نسجل إن التجاوزات الشرعية لم تصل إلى الأموال الشخصية لأصحاب الأرض المهزومة ولم تُرَق دماؤهم بعد (الفتح) مباشرة، وهو حدث يعد استثنائيًا في دول العالم المتخلف، وكانت

العادة عند السبتمبريين والأكتوبريين بخاصة الإفراط في سفك الدماء في أثناء صراعاتها الداخلية وبعد أن تضع الحرب أوزارها. وقد يرى البعض أن هذه البدعة التسامحية مبيتة وتخدم المنتصرين على المدى البعيد، ولا تنم عن نوايا صادقة لغلق أبواب الصراع. ومع تفهمنا لهذا الطرح لا بد من القول إن هذه (البدعة) فيها من الإنسانية والإيجابية في حينها الشيء الكثير، كانت طلقة ولكن في المكان الصحيح.

وسئم الناس الصراع والاقتتال، وعادوا يلملمون الجراح ويتناسون النواح على أمل أن يسود الهدوء وتختفي الطلقات ما ظهر منها وما بطن، لقد أصبح الجميع في سفينة واحدة وبقيادة واحدة. وهكذا أمسك الشرعيون مقاليد الأمور، وكان من السهل أن تسير السفينة - ولو ببطء - لولا إدمان البعض في اللعب بالزناد. وفي الواقع لم يكن المنتصرون مدركين لوضعهم الجديد ودورهم الخطير، وعادوا بالشهور إلى حيث ما تشتهي أنفسهم، وتوقفوا عند شهور بعينها، وتناسوا أن الشهور كل الشهور تدور، بل اعترتهم

طمأنينة غير أمينة، وأصبحت طلقاتهم تنطلق من الغرف المغلقة والمفتوحة ولا تصيب أغلبها إلا لحمًا سمينًا. وفي مثل هذه الظروف غابت عقلية الفارس المنتصر العاقل التي أملها بعض المهزومين في المنتصرين، وبرزت بقوة عقلية الفارس ذي الأطماع البعيدة سداسية الأبعاد. كان مفروضًا على المهزومين الصمت رغم كل الأصوات المزعجة، وفسر المنتصرون الصمت تفسيرًا بعيداً عن الواقع لهذا تشجعوا على المزيد، وتركوا لأيديهم العنان في الضغط على الزناد مثنى وثلاث ورباع، حتى سمن جياعهم وازداد ورم سمانهم، وتبعثرت الغيوم وألقى يوليو بثقله وسخونته على أنفاس المهزومين وكان لا بد أن يتحركوا، كي يتنفسوا، ويتحرروا، وما يزالون يتحركون...(أكتوبر ٢٠١٠م)

حضرموت... خرير وهدير :

مع بقاء الوديان بقي اسمها، ومع تدافع الأمواج دام سرها.. خرير وديانها يبشر بالنبات الحسن، وهدير الأمواج يجدد في جبينها

ساعات الزمن.. وبين الخرير والهدير وفي تلاحمهما تروى بهاء طهور قصة من التاريخ.

منذ قرون سحيقة عاشت حضرموت التسمية بسلام وأمان، بعكس أهلها الذين عانوا من تقلبات الزمان، وتنوع لباس السلطان، في عصر الجنوب الثوري استبدل بأسماء المناطق أرقام معينة كان نصيب حضرموت رقم (الخامسة)، وللحق فإن لهذا التقسيم الكثير من الحيثيات المقنعة في حينه، فالحكم الجديد قام على أنقاض أكثر من عشرين إمارة ومشيخة وسلطنة، وبالتالي ومن أجل تعزيز الانتماء للكيان السياسي الجديد لا بد من غرس ثقافة جديدة يستبعد فيها الانتماء المناطقي والقبلي؛ لهذا غلبت رموز الأرقام على جذور التاريخ، وفي المناطق ذات الثقافة القبلية المكثفة حرص رجالها على ذكر أسمائهم دون ذكر اسم القبيلة، ويوسم من يفعل ذلك بالتقدمي والتقدمية والعكس صحيح.والظرفاء ينعتون تلك الأسماء «بدون بريك».

ولكن ليس كل ما هو أصفر ذهبًا فهناك من يرى أن الأرقام تحمل أسرارًا، وأن الهدف منها حضرموت التسمية بوصفها أكبر

وأهم كيانات الحكم الجديد، وأضحت لفظة اليمن تزاحم كل الألفاظ القائمة وقتئذ وتطرح بوصفها الحاملة أو المهيمنة عليها.

كان شعار تحقيق الوحدة اليمنية أقوى شعارات أهل الجنوب في تلك المرحلة، وبرزت الوحدة اليمنية ضمن أهداف الثورة الأكتوبرية، وفي ميثاق الجبهة القومية ووثائقها، وسهل هذا المرور الإيمان القوي بالوحدة العربية عند الشباب وقتئذ، فشمال اليمن ما هو إلا قطر من أقطار هذا الوطن العربي الكبير فإذن هو هدف صغير من الأهداف العربية الكبرى المأمولة، ثم تحلق الثوّار بجناحهم اليساري إلى توصيفات كبرى توحد الناس أو تصنفهم بحسب طبقاتهم الاجتماعية (الأممية البروليتارية)، وتلازمت الشعارات والأهداف بوتائر مختلفة حينًا من الزمن.

بعدما يقارب عقدين من الزمن أعاد الثوار الاعتبار إلى المناطق وسميت الأسماء بأسمائها وعادت حضرموت التسمية من جديد. ولا بد أن نسجل هنا أنه عندما غابت التسمية عن حضرموت ظلت حضرموت الجغرافية والثقافة أكثر تماسكًا مما كانت عليه أيام

الحكم السلاطيني، وللتاريخ لا بد أيضًا أن نسجل أن حضرموت الجغرافية والثقافة كانت الحاضنة لسلطنتيها وأكبر منهما، ولم تكن السلطنة القعيطية تحمل في عقودها الأخيرة شيئًا من يافع في حضرموت إلا تسميتها وشيئًا من شيء.

ومما يحسب لنظام الحكم في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية تمكنهم من توحيد الكيانات السياسية في دولة واحدة وتأسيس نوع من الحكم الاتحادي غير المعلن بين المحافظات فقد احتفظت كل محافظة بإدارة شؤونها وفقًا للتوجيهات المركزية ولكن بإدارة عسكرية ومدنية محلية، وهذا ما جعل الناس يتقبل بعضهم بعضاً في إطار شعور إيجابي صامت بالرضا ما دام هذا التداخل لا يلغي الخصوصيات أو يمسها بأذى أليم.

أما العاصمة عدن فكانت في ظاهرها مدينة الجميع وفي باطنها مرتعاً تداخلت فيه تكتلات وقوى سياسية لم تستطع التعايش فيما بينها وفي دورات متعاقبة من النزاع تتساقط عدن بين الرفاق، بينما حضرموت كغيرها من المحافظات تنتظر وتستمع. وكانت بثقلها

الجغرافي والسكاني والاقتصادي والثقافي تستطيع أن تقول الكثير أو أن تقول أكثر مما تسمع ولكن غفلة بعض أبنائها من الثوار جعلها تصير رقمًا ندًا للأرقام الأخرى التي أطلقت، وكان من حظوظ حضرموت الربانية أنها ظلت بإمكانيتها وثقلها - باستثناء عدن - أهم محافظات الجنوب وكان هذا سندًا لها، وحاميًا لعفويتها، ورادعًا لما يضمر ضدها.

كان بعض المحسوبين على حضرموت الموجودين في هرم السلطة في مدينة عدن لا يشكلون تكتلًا فعليًا ضاغطًا لصالح حضرموت بل البعض منهم حكم بالظلم ليشتهر بالعدل؛ أي أنهم أبعدوا أنفسهم عن (شبهة) الانتماء لحضرموت كي لا يقال عليه مناطقي، وقد دخل معظم هؤلاء الحضارم في معترك التكتلات السياسية بتياراتها المختلفة بدافع الاعتقاد أو للبحث عن تكتلات حامية أو ساندة، ولا سيما عندما تشتد الأزمات الداخلية وتستدعي مواقف واضحة. وقسم منهم فضل أن يكون جزءاً من الدولة دون أن ينخرط في نظام الحكم ودهاليز السياسة.

وظل الرفاق الحضارم مخلصين لمنظومة حكم (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)، وتحركت لعبة الحكم والسياسة بين عدن وحضرموت فالتيار أو الفريق الحضرمي الذي يستقوي في عدن يستقوي رجاله في حضرموت والعكس صحيح، على أن أهم إفرازات هذه اللعبة وأخطرها على حضرموت هو انقسام الحضارم على أنفسهم في حضرموت ذاتها؛ حيث شهدت حضرموت الصراع المناطقي بحسب المديريات، وكانت المعاني الإيديولوجية هي العنوان الأساسي والظاهر للانقسام والتنازع كما هو حاصل في عدن، أما جوهر الصراع فكان السيطرة على الحكم، والبقاء في المقدمة، ولكن قبل البحث عن أسباب التنازع تجب الإشارة إلى أنه بينما تشرئب بعض أعناق الرفاق الحضارم في حضرموت نحو عدن، نسوا أو تناسوا حضرموت ذاتها.

بقي أن نقول كلمة لعلها تحسب لصالح الحضارم (الحضارمة)، والحضارم العدانية، فبالنسبة لنزاع الرفاق الحضارم في حضرموت فهو وإن اصطبغ بالصبغة المناطقية كان في حقيقته وفي مجمله تنازعًا

سياسيًا بين النخب السياسية ومن حالفها داخل المنظومة الحزبية الواحدة، ولم يكن بمقدور أحد حرفه عن هذا الاتجاه، وإذا أعطينا لهذا التنازع بُعدًا اجتماعيًا سنلاحظ أنه تنازع بين حواضر حضرمية بغلاف إيديولوجي يحمل دلالات مهمة تؤشر إلى غياب المنظومة القبلية، ويؤكد على أن شروط اللعبة الجديدة تقتضي لمن دخلها تفهم هذه المتغيرات.

أما أصحاب عدن فلم يحافظوا على الثقل السياسي الذي استحقته حضرموت وحظيت به في أول حكومة بعد الاستقلال، وكان (الترهيب) بالمنطقة يلاحق جميع الساسة في عدن؛ لهذا انغمس الحضارم في اللعبة السياسية بمرجعية حضرموت المدينة، والثقافة المسالمة، وعندما تشتد فورة الصراع القبلي بين الرفاق تخرج حضرموت سليمة إلا اللمم، وهي بهذا جنبتهم الدخول في ما لا طائل منه ولا جدوى، وقدمت لهم أكثر مما قدموا لها.

وعندما وصل الحضارم إلى الصفوف المتقدمة في هرم السلطة في العاصمة عدن -بعد أحداث يناير الدامية- كان الجنوب مثخنًا

بالجراح، مكسّر الأجنحة، ثم إن هذه المواقع سهلت للحضارم تبوؤ مناصب مهمة في دولة الوحدة اليمنية.

وبعيدًا عن لغة المكسب السياسي أو المجد التاريخي فإن رموز حضرموت والجنوب الذين دخلوا في مرحلة تداعيات ما بعد عسل الوحدة عجزوا عن مواجهة الشمال ونصف الجنوب، وكانوا يظنون -وبعض الظن إثم- أنهم يسيطرون على الجنوب ونصف الشمال؛ ليجد السياسيون الجنوبيون أنفسهم في الشتات خارج حدود الوطن، وربما تكون هذه أكبر مذبحة سياسية في تاريخهم.

ودخلت حضرموت مع محافظات الجنوب في فراغ مؤسسي شمل كل مناحي الحياة، وعملت السلطة (الفاتحة) على إعادة ترتيب الأوضاع بأجندة خاصة بها، وكان الملف الأمني هو العنوان البارز للفاتحين وما يزال، ويُعد تزويد الجندي من خارج محافظة حضرموت بالسلاح الناري وتجريد زميله الحضرمي من السلاح أو تزويده بالعصا الخشبية أو البلاستيكية في المهمة العسكرية الواحدة تعبيرًا صارخًا عن هذه الوضعية الغريبة.

ولم تسلم مناطق القرار المدني (السيادي) كالعقار ، والجمارك، والنفط – وما أدراك ما النفط – وحيث ما حل ورحل ريال اليمن من رجال مجلوبين مع وجود كفاءات حضرمية وخبرات، وحتى منصب صاحب (القرار الأول) في حضرموت تعاقب عليه ثلاثة من خارج حضرموت، والرابع الحضرمي غرَّد بألحان عاطفية لا تليق بصوته الثوري الجميل.

وتحالف الفاتحون مع أبناء حضرموت من أصناف الكوادر الماركسية (التائبة)، والمغضوب عليهم من رفاقهم الأكتوبريين، ومع الحضارم (نص نص)، ومع كل من ساعدهم بالكلمة ولوّح بالرصاص، وبهذا تغير المشهد السياسي في حضرموت.

وجرت ضد حضرموت محاولات وما تزال لم يفعلها المستعمرون البريطانيون ولا الاشتراكيون المتطرفون مثل إهمال هويتها الثقافية، وفرض عادات غريبة عليها، والسعي إلى تقسيمها. في العاصمة عدن كان الثوّار الحضارم يشعرون رغم قلة حيلتهم بأنهم محميون بحضرموت –كما ذكرنا–، وفي المشهد الجديد صار الحضارم في

حضرموت وفي العاصمة صنعاء يعتصمون من الماء بالجبال، ورضا الفاتحين... أما حضرموت فلها ربٌّ يحميها.

ولم تفعل حضرموت إلا القليل لعلها تعودت سماع التعليمات عن بُعد، أو أنها لم تجد فرقًا كبيرًا بين درجات الحرارة في كل من عدن وصنعاء. ولكن الثابت أنها سكتت على مضض، وفي أمل... لهذا استمرت الوديان كعادتها تعزف معزوفة الخير وبادلتها الشواطئ المعزوفة بالمعزوفة.

صدى من صدى :

في رحلة العمر تمضي الأيام سراعًا، فقد شهدنا جمهوريتين يمنيتين أو ثلاثًا لمن عدَّ جمهورية يوليو جمهورية مستقلة، كان هناك من يبالغ في توجساته من حضرموت والنزعة الحضرمية، وللأمانة فإن هذه النزعة موجودة عند البعض، وستظل موجودة، فلا يمكن بقانون أو بضربة حظ أن يصير الناس على رأي واحد ووجهة نظر مشتركة، وهذه سمة نجدها عند كل الشعوب والطوائف والجماعات.

والحضرمية - في تقديرنا- ليست نزعة عنصرية أو طائفية ممقوتة، بل هي هوية وثقافة، والحضرمي كل من عاش في حضرموت وتدثر بها، وسلك مسلكها، واعتز بها، وربَّ رجل من الحضارم وليس فيه من الحضرمية إلا اسمها، وليس قصدنا أن تكون الحضرمية معيارًا للسلوك، وإنما نذكر هذا للتوضيح، والخصوصية الثقافية لا تعني الأفضلية الثقافية والتعالي على الآخرين بل على العكس من ذلك فإن من صميم الخصوصية الحضرمية التواضع.

وما يتمسك به الحضارم ويبعث اعتزازهم بأنفسهم أمور بسيطة منها: حبهم للنظام، ونبذهم للعنف وما قرب إليه من قول أو عمل، روح التكافل الاجتماعي، تدينهم البسيط، سهولة التعايش السلس فيما بينهم ومع الغريب إذا احترم ما هم عليه، ومع الآخر في أرض المهاجر باحترامهم لتقاليد أهل البلاد الأصليين.

واشتهر الحضرمي بالأمانة؛وهي ميزة ارتبطت بهم وارتبطوا بها في بقاع كثيرة من أرض الله. والحضرمي بحسب سلوكه يُركز على الخاتمة وحُسن الختام في حياته ومماته ومعاملاته، وإذا كانت بعض

الشعوب تقول: «الذي أوله شرط آخره نور»، فإن الحضرمي يدور مع هذه المقالة، ولكنه يُمعن في البداية ليضمن حُسن النهاية فهو يقول: «دخل عيف وخرج زين».

والمجتمع الحضرمي في حواضره وبواديه يركن إلى مؤسسات الدولة في حل مشكلاته ويحترمها؛ لهذا يردد الحضارم القول المأثور: «دولة ومحد يعصي الدولة»، ولما يزيد على الستين عامًا عملت السلطات في حضرموت على تفكيك مؤسسات القبيلة وربطها بالدولة في كثير من أمورها، وصارت الثارات القبلية من الماضي غير مرحب بها اجتماعيًا؛ لهذا بعد استقلال الجنوب كانت حضرموت أكثر من غيرها تكيفًا مع الإجراءات التحديثية للدولة الفتية.

وفي عهد اليمن الموحد تجاورت منظومتان قبليتان مختلفتا الكثافة السكانية متداخلتان حينًا ومتعارضتان حينًا آخر في العادات والتقاليد الاجتماعية، على أن القبيلة في حضرموت كانت قد قطعت شوطًا أكبر نحو قبول الحياة المدنية ومع ظهور هذه المستجدات غير المتوقعة، وبدافع الهاجس الجمعي الأمني، أو بدافع الحنين إلى الماضي،

أو بأي دوافع أخرى سعت القبيلة في حضرموت إلى إعادة ترتيب نفسها وفقًا لهذه المتغيرات، وبرزت أسماء جديدة تحمل ألقابًا قديمة (مقدم القبيلة)، أو وافدة (شيخ القبيلة)، وتمنطق الرجال في الأفراح والتجمعات بالسلاح على أكتافهم وبين أيديهم.

وفي الآونة الأخيرة دخلت القبيلة في اختبارات عديدة كادت أن تدفعها إلى اشتباكات مع مجاميع مسلحة، ومع رجال قبائل من خارج حضرموت، وكان عليهم بحسب (القانون القبلي) التحرك والرد بقوة، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث، ربما يعده البعض جبنًا، ولكننا نجد الأمر على غير هذه الوجهة، فالحضارم تناسوا برضاهم المنظومة القبلية القديمة، ووجدوا ذلك في مصلحتهم، وجاءت (صحوتهم القبلية) بأمل عودة القبيلة بصيغ جديدة تقوم على التكافل الاجتماعي، والتقارب الأسري، متشبعة في ذلك بثقافة تعترف بدور الدولة، وتكره العنف، وتصبر على المكاره إذا كانت عواقب مواجهتها كبيرة.

سيجانب الصواب من ظن أن الحضارم يميلون إلى العزلة والانكفاء على ذاتهم، ولكن أغلبهم يميل إلى تجنب ما سيضعهم في مشكلات وتعقيدات؛ ولهذا هم يحرصون على الالتزام بالقوانين حتى عُدّت حضرموت حقلًا لبعض التجارب الاجتماعية للرفاق.. ولن يكون منصفًا من ظن حضرموت لحمًا بدون عظام، إنها ككل (الناس) تتكون من لحم ودم وعظام ومشاعر، ربما تتأخر عن الغضب ولكنها إذا غضبت تغضب بحق، ومن أجل حق.

الصدى وآخره :

هل كانت حوادث الزمن الجمهوري الماضية لنا أم علينا؟ وما هو موقفنا منها؟ ومن نحن؟ وما هو مصيرنا؟ لن تفيدنا الإجابات ذات اللون الرمادي، ولن تنصفنا ذات اللون الواحد. ولكننا يجب أن نقول وبموضوعية بأننا كنَّا بعد أن فار التنور على مقربة من تدفق السنين، وسطوة الأحداث، فسارت بنا الحوادث على هواها، وبشروطها، وبحدّة قوانينها إلى حيث تريد، لم تترك لنا من خيار إلا

أن نمضي مع ركابها، وشيء من سدر قليل.. لهذا نحن ثوريون، ومناضلون، واشتراكيون، ووحدويون، وانفصاليون، ورجعيون، وكهنوتيون، وخونة، وشرفاء، و(مقربعون) بحسب قواميس ربابنة الزعايم (السفن).

سألني زميل في منتصف ثمانينيات القرن الماضي: لماذا لاتدخل في عضوية الحزب الوحيد الحاكم؟؟ والمخفي من التساؤل أن ذلك ربما يساعدك على الوظيفة الجامعية، وكان التفوق الدراسي في ذلك الزمان لا يكفي. وكان ردي بما معناه لا معنى لحزبية بحزب واحد، وكانت الإجابة غريبة، وكان لا بدَّ من دفع ثمنها، ولم أشعر بالندم، ولم أكن أعلم -وقتئذ- المعنى العميق لتمسك الناس بالمبدأ، ولكنني أفهم بعضه، إنه مُر في أوله، ولكنه يثمر رضًا عن النفس يدوم طويلاً

وعندما فتحت أبواب الحزبية هممنا بها، ولكن ضوضاء منتصف الطريق جعلتنا نتريث قليلًا، ثم اكتشفنا ما يدفعنا إلى تعليق تلك الرغبات. ويمضي بنا الزمان، وما نزال في حرب

مستمرة مع نوازعنا الداخلية ربما غلبتنا في جولات، ولكننا غلبناها في جولات جوهرية، ولا نظنها -أي هذه النوازع وقد بلغنا من الكبر عتيًّا، وإن اشتعل منَّا الرأس شيبًا، وفي هذا الزمن القليل الباقي إذا تبقى- تحرفنا عن جادة الطريق، سنتمسك بالحياة، ونتمنى من الله عمرًا مديدًا، وسنسعى ما استطعنا السعي إلى الحياة الكريمة وإلى مجتمع نرضاه، سنحاول دفع المثالب، وإن لم نستطع فلن نكون سندًا لها أو مع أصحابها.

في نصفنا الثوري كنَّا بعيدين عن دائرة المسؤولية الأسرية، والعمل الرسمي العام، ولكننا نلحظ -رغم العيوب والمثالب- أن الحياة المعيشية أبسط مما هي عليه الآن، وأكثر راحة بال، وأقل تسولًا مما بعدها، في نصفنا الثوري لم يقلق الناس على تعليم أبنائهم، ولا على الدواء الذي يتجرعونه، ولا الطعام الذي يأكلونه، ولا الماء الذي يشربونه، كانت المراقبة يقظة والمحاسبة قوية. في نصفنا الوحدوي فتحت الأبواب، وانتعشت تجارة التهريب والتسريب، وغاب الرقيب والحسيب.

إن مفارقات الصدى ومقارباته لا تعنينا في هذه الالتفافة. والمشهد الجديد أكبر من مجرد أصداء يمكن فهمها ومتابعتها، ولكن هل هناك من أمل؟؟؟ نعم. فعندما نفقد الأمل تنتهي الحياة، ولكن وبصدق نقول: إن الأمل لا يأتي بضربة حظ، أو من جيوب السحرة والمنجمين، بل نحن نستطيع أن نزرع الأمل من خلال منظومة من الآليات تشد بعضها بعضًا، وجملة من الخيارات يرتضيها الناس بعيدًا عن ثقافة المراكز والأصول والفروع إلى ثقافة المصالح والشراكة والقبول، من السهل أن يقول الناس الكثير وهم يتفرجون، ولكن من الصعب اختبار مدى جذور النوايا الصادقة المخلصة.

لن يكون منصفًا من عدَّ هذه الأوراق المختزلة للسنين تدوينًا تاريخيًا، وهي وإن لاح فيها شيء من التاريخ إنما من صداه، والمؤرخ الجاد هو من تصطاده هذه الأحداث أو يصطادها - عندما يحين أوانها - ليجعل منها بداية للتوغل في عمق الأحداث بصخبها وضجيجها لكي يعرف ماذا حدث؟ وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ ثم يبحث مع الناس للخروج من سبيل.

ها نحن نتجه بأبصارنا إلى عتبات قادم جديد، نتمنى أن يكون للجميع أكثر إشراقًا، وأحلى أملًا، وأقوى طمأنينة، وأطيب راحة بال. لقد آلمنا النحيب، وشتتنا الصخب، وأزعجنا الضجيج، وفرقتنا الفوضى، وتعبنا من طول الانتظار؛ لهذا لا بدَّ من العودة إلى الوديان ننصت إلى خريرها الحنون، وعلى ضفافها نستظل تحت شجرة من سدر خصيب ، أو نردد مع الأمواج لحنها الخالد ، وبالقرب من النسمات، وعلى حافة الشواطئ نحدق إلى بعيد...

ثانيًا : من يوميات مدرس في الأرياف

(١)
(في رحاب جول الريدة)

ما إن تضع امتحانات الثانوية العامة أوزارها حتى تجد الطلاب المتخرجين على استعداد لتأدية الخدمة العسكرية الإجبارية لمدة سنتين قابلة للزيادة بحسب الظروف. في صيف عام ١٩٨١م انطلقت دفعتنا من طلاب (ثانوية المكلا) نحو معسكر التجمع في منطقة العند العنيدة بالمحافظة الثانية (لحج)، وصاروا ضمن السجلات العسكرية أرقامًا متسلسلة تحمل رقم دفعة واحدة هي (الحادية عشرة)، وقد اضطررتُ لظروف عائلية إلى تأجيل خدمتي العسكرية لمدة عام حسب القانون. بينما كان الزملاء والأصدقاء يركبون المجهول، وعلى وشك الدخول في تجربة مغايرة وشاقة كما تتواتر الأخبار،

كان التساؤل الذي لم أحسب حسابه أو لم أستعد له هو: ماذا سأعمل في هذه السنة؟ لا سيما أن الدراسة الجامعية لا تفتح أبوابها وقتئذ إلا (بسبور) الخدمة العسكرية المتضمن الإشارة السحرية بأن حامله أكمل المدة على ما يرام. وبينما كنتُ وأهلي في حيرة من أمرنا سمعنا إعلانًا في (إذاعة المكلا) عن حاجة مكتب التربية والتعليم في المحافظة الرابعة (شبوة) إلى مدرسين من حملة الثانوية وما فوقها، وشجعني على قبول العرض أخي أحمد الذي يعمل معلمًا في هذه المحافظة. من هذه الإطلالة السريعة بدأت قصتي مع مهنة التدريس.

في مكتب التربية بالمكلا وقَّعتُ على استمارة عقد العمل، وحرصتُ على أن تكون مدة العقد عامًا لأرى بعدها ما تخفيه الأيام. مع بداية العام الدراسي الجديد (١٩٨١- ١٩٨٢م) غادرنا مدينة المكلا كنتُ المعلم الجديد والأصغر سنًا ضمن مجموعة من المعلمين المتوجهين إلى مدارسهم، وبينما كانت حكايات الزملاء المتضمنة طرائفهم وذكرياتهم للعام المنصرم تخلق حالة من البهجة تخفف عناء الرحلة الطويلة، كانت تتنازعني بعض الهواجس والتوجسات،

فالأقدار وبدون مقدمات وضعتني أمام تحول نوعي في حياتي فقد نقلتني من مقعد الصف الدراسي إلى صدارته. ورغم صخب الأصوات وطنينها، كان هناك مجال رحب سبحتُ فيه مع تأملاتي الحائرة، وغصتُ في تساؤلاتي الصامتة الدفينة، في حين استمرت حكايات الزملاء تعاند الطريق في تحدٍ مُطعم بالصبر والخبرة، وانشغلت إطارات السيارة بالتهام الطريق بهمة لا تعرف الكلل حتى وصلت إلى هدفها المرسوم في مدينة (ميفعة) عاصمة المديرية الجنوبية.

جاءت نقلتي إلى (مدرسة جول الريدة) على غير رغبتي. تقع المدرسة على الهضبة المحاذية لمدينة ميفعة، وقد تم بناء المدرسة في هذا الجول لتكون قريبة من عدد من التجمعات السكانية؛ وهي منطقة شبه خالية من السكان باستثناء وحدات سكنية غير بعيدة تم إنشاؤها من قِبل الدولة، ويخترق هذا الجول طريق (المكلا – عدن). وعلى الحافة المطلة على مدينة ميفع وبمحاذاة الطريق تجد عددًا محدودًا من المطاعم والبقالات تلبي حاجات عابري الطريق. آثر أهالي مدينة ميفعة الصغيرة البقاء في أماكنهم بعيدًا بعض الشيء

عن الطريق الإسفلتي الحيوي، ثم ما لبثوا أن أدركوا الأهمية الاقتصادية لهذا الجول بفعل اختراق الطريق الرئيس له. في منتصف تسعينيات القرن الماضي تغير الأمر كثيرًا فلم يحتفظ الجول إلا باسمه بعد أن تغشته البيوت وصادرت براءته، ونالت من عفويته.

في مبنى مدرسة قديمة مبنية بالمواد المحلية التقليدية وبجوار المدرسة الجديدة كان سكن مجموعة المدرسين القادمين من حضرموت باستثناء زميل من بلدة الروضة كان يزاملني غرفة السكن. يصل طاقم التدريس المنقولين من محافظتنا الخامسة (حضرموت) إلى أكثر من ٨٠٪ من الطاقم التدريسي، ولعل هذه النسبة أو قريباً منها هي السائدة في المدارس الأخرى.

يتم توزيع الحصص بالنسبة للصفوف العليا السابع والثامن والتاسع -غالبًا- وفقًا للتخصص، أو بحسب الخبرة في تدريس مادة معينة. أما الصفوف الصغرى فمتروك فيها الحبل على الغارب، فكنت مدرسًا للغة العربية للصفين الخامس والسادس، ومدرسًا لمادة التاريخ، والتربية الرياضية. كان ضمن طاقم التدريس زملاء

من حملة دبلوم كلية التربية العليا بالمكلا، وكان ذلك أرفع مؤهل علمي في المحافظة. لا أتذكر كثيرًا من أسماء الزملاء، وإن كنت أعرف البعض منهم تمام المعرفة، في سنوات لاحقة نبهني الزميل المعلم (متقاعد) خميس عيضة بافرج إلى عادة مفيدة كان يقوم بها مع نهاية كل عام دراسي؛ وهي كتابة أسماء الطاقم التدريسي للسنة الدراسية في المدرسة التي يُدرس فيها. لعل ذكري لهذه المعلومة العرضية نابع من فشلي في ذكر كل أسماء الذين جمعتنا معهم صحبة طيبة، وليال جميلة، وعيش وملح، ومعاناة. وفعلًا: العلم في الكراس لا في الرأس.

يبدأ اليوم الدراسي -كما هو معمول به في أغلب المدارس في الجمهورية- بالنشيد والقسم الوطني، وربما الفارق في مدرستنا التغيرات الفجائية الكبيرة الناجمة عن تدفق التلاميذ في سيارات الشحن من المناطق القريبة في وقت واحد، مذكرين بيوم البعث العظيم بعد الصمت الطويل. فأغلب الطلاب منقولون من القرى المجاورة، ولهذا ما إن يعود التلاميذ إلى منازلهم حتى يعود الصمت

أدراجه إلى المكان. ولا يدل على استمرار الحياة وتدفقها إلا أصوات السيارات العابرة السريعة التي نستطيع مشاهدتها من نوافذ مسكننا.

ساعد هذا الوضع شبه الخالي من السكان على مزيد من التعايش فيما بيننا. والحقيقة وفرت إدارة التربية بالمديرية بعض عناصر التسلية لقتل أوقات الفراغ منها طاولة لعبة التنس، و(كيرم)، وهو كرم يستحقه فائض الفراغ الملازم للمكان..

كانت عصريات الأيام تمضي بين التحضير لليوم الدراسي القادم، أو تصحيح الكراسات، أو غسل الملابس، أو الثرثرة داخل مبنى السكن، وغالبًا ما تكون نزهة المجموعة بعد صلاة المغرب في المقهى والمطعم الذي يملكه حضرميان قدما من السواحل الأفريقية الشرقية، والخدمة الكبيرة التي قدمها صاحبا هذا المطعم لعزبة المدرسين هي توفير السمك اليومي اللازم لوجبة الغداء. لا يخلو المقهى أو المطعم من تجدد وجوه الزائرين الذين يحمل كل منهم سره الخاص ويرحل. والحقيقة الثابتة في تلك الليالي هو الاحتلال اليومي لمجموعة المعلمين لعدد من كراسي المقهى لشرب الشاهي،

ولعب (الدمنة) فقط، أما وجبة العشاء فقانون العزبة الصارم حدد مكان تناولها وزمانها، مع احترام الحرية الشخصية لمن أراد التهور خارج ذلك النظام «والحصاة من القاع ، والدم من رأسك».

لا أستطيع تحديد عدد أفراد العزبة لكنهم لا يقلون عن عشرة ولا يزيدون عن أربعة عشر؛ يدفع كل منهم مبلغًا متفقًا عليه من المال لتوفير مستلزمات الوجبات الثلاث، ولخبرات أكثر أفراد المجموعة في إدارة العزب كان من السهل ترتيب (الطباخين) للوجبات الثلاث ببرنامج ملزم للجميع، ولأنني وزميلي في الغرفة من المستجدين في الخدمة كنَّا لا علم لنا بفن الطبخ إلا اللمم، لهذا قدّر وضعنا مؤقتًا وصرنا من ضمن الطاقم المساعد للطباخ الرئيس، وفي مثل هذه الأجواء سمعتُ المقولة الشهيرة للمعلمين وهي أن: «كل معلم طباخ، وليس كل طباخ معلم» ربما هذا الجيل أقل معاناة من أجيال المعلمين الرواد السابقين الذين كانوا يتنقلون بين القرى سيرًا على الأقدام، وفي ظروف ينقطعون فيها عن ذويهم والعالم الخارجي.

تجهز وجبة الفطور من الصباح الباكر بعجن الدقيق وتعطيفه وتجهيزه إلى مرحلة ما قبل (عذاب) التاوة، ويكتفي المعلمون بأكواب من الشاهي، وقبيل الفسحة الأولى تجري عملية سحل أقراص البراوطة الرطبة بلا رحمة على التاوات، وخلال ربع ساعة يكون الفطور جاهزًا، وساخنًا. ثم يتفرغ أصحاب الصحون بغسل الأواني، وتجهيز المطبخ لكتيبة وجبة الغداء، فيتقدم منهم من أكمل برنامجه اليومي وغالبًا ما تفرق حصة واحدة في أحسن الأحوال، فبرامج جميع المعلمين لا تقل عن أربع حصص في اليوم. أما وجبة العشاء فهي في وقتها ويسهل السيطرة عليها، فأصحاب الليلة يجدون لهم في الليل سبحًا طويلًا، وتتكون الوجبات عادة من ثنائية البراوطة والرز.

ولكن دوام الحال من المحال فلا تخلو الأمور من انتقادات ومنغصات هنا وهناك، فالعزبة فيها أنداد من حيث الخبرة والسن، وهذا عادة ما يخلق حالة من التحسس عند من يجد في طرفه الرغبة في البروز أو الاستحواذ بالرأي، ولكن المصلحة في التوحد في تلك الظروف تنتصر على النوازع الذاتية، حتى ظهرت القشة التي

قصمت ظهر البعير، فقد زارنا ضيف عابر معروف عند بعض أفراد العزبة، وطبيعي في مكان يكاد يخلو من السكان أن يسعد الجميع بأي ضيف فهو يكسر رتابة الحياة اليومية ومللها، وفعلًا أخذ الضيف من الوقت أضعاف ما حدده العرب للضيف، ويبدو أنه استحسن المكان، وشغف به دون أن يعطيه ما يستحقه من التزامات. وبعيدًا عن التفاصيل غير الضرورية فقد أحدث هذا الأمر شقًا في صفوف العزبة، وتحولت إلى ثلاث عُزب، سيطر على كل عزبة رأس من الرؤوس (الكبيرة). ولكن ظلت العلاقات البينية على ما يرام طالما احترمت الخصوصيات ووجهات النظر. كان هناك توجسات عند البعض بأن الضيف ربما يكون مدسوسًا لمراقبة تلك الثلة من المعلمين البعيدين عن أعين الناس، وعلى فرضية صحة هذا القول فإنني متأكد أن المعلومات لن تكون ذات جدوى للجهات الأمنية التي أرسلته وربما فائدتها -إن وجدت- ستكون لهذه الأوراق التي نحاول بعد مضي ثلاثين عامًا نبش تفاصيلها من ذاكرة الأيام.

رغم أن مدارس المديرية متباعدة عن بعضها البعض فإن شبكة الاتصال بين الزملاء بالوسائل المتاحة هي التي تعزز العلاقات، وكانت عزبتنا أحوج ما تكون للناس؛ لهذا تكون نهاية كل أسبوع على موعد في زيارات متبادلة يرتب لها مع العُزب في القرى المجاورة، وغالبًا ما يضفي التجمع بعد الغياب حالة استثنائية من الفرح والتآلف، ولا بد أن نذكر هنا أن العلاقات بين سكان القرى والمعلمين كانت على درجة مقبولة من الوئام والاحترام، عندما زرنا بلدة (الروضة) القريبة من قرية (غرير) بعد صعود عقبة خطيرة وجدنا الكرم العربي الأصيل في أحسن صوره، فبعد أن قضيت صلاة الجمعة لاحظت الزملاء يتجهون إلى بيت غير سكنهم، ثم اتضح لي أن المعلمين في أغلب الجمع في ضيافة، في اتفاق ترابطت عراه بين أبناء البلدة. إنه تقليد يحمل دلالات رائعة.

لا أريد أن أستعرض نماذج أخرى من الكرم العربي الذي ربما أصابته الآن شائبة من شوائب هذا العصر وتعقيداته، تزداد درجات الكرم بحسب مواطن الاستيطان الحضري، فكلما كانت المنطقة

أقرب إلى المدينة منها إلى القرية تراجعت نسبة الكرم والقبول الأهلي، والعكس في حالة القرية، وتظل المدن والقرى في كل مكان مذاهب وأجناساً.

لا بد هنا من الإشارة إلى أنه في تلك الأيام لم تصل خدمة التلفونات ولا الإرسال التلفزيوني إلى تلك المناطق، وكان الناس أشد قربًا من بعضهم البعض مقارنة بهذه الأيام، وأكثر تسامحًا في لقاء الضيوف والأغراب، ودائمًا لعجلة التطور والحداثة إيجابياتها وفواتيرها التي تمس العادات والتقاليد والقيم السائدة.

وعودة إلى المدرسة لاحظت سلوك التلاميذ عمومًا مقبولًا، ويتعزز هذا السلوك أو يتراخى بحسب شخصية المعلم. أما المستوى الدراسي فهو أميل إلى الهبوط، وربما يرتبط ذلك بضعف التعليم في المراحل الدُنيا أو الأساسية، ومع هذا لا يخلو أي صف من بروز بضعة طلاب يجعلون للحصة الدراسية معاني حقيقية. في هذا التجربة العملية أدركت مدى صعوبة مهنة التدريس وفي قرارة نفسي (اعتبرتها) كما يقول المثل الحضرمي: «قبصة حشيمة»؛ لهذا

عند اختياري للكليات الجامعية -بعد أن أديت الخدمة العسكرية الإجبارية- حددت رغبتي في الكليات التي لا ترتبط بالتربية والتعليم من قريب أو من بعيد، ولكن سارت الرياح بما لا تشتهي السفن. إن مهنة التدريس - وبغض النظر عن الانطباع القديم المحكوم باعتبارات متعددة- لها متعتها وسحرها الخاص، ولعل ذلك ينطبق على أي مهنة إذا أخلص لها المرء، وأعطاها حقها، وأيقن صاحبها أن لكل مهنة نصيبها من الأتعاب والمصاعب، وأدرك أن التعامل مع مشكلاتها يجب أن يتم بالنظر إليها بوصفها مكونًا طبيعيًا في منظومة العمل والوظيفة.

من داخل قاعات الصف سأذكر هنا طرفتين: الأولى في حصة القواعد كان الدرس المكتوب على السبورة الفعل الماضي وإشارة بحصة القواعد. حاولت أن أشرح الزمن عمليًا بأن طلبت من (الطالب سالم) الخروج من الصف ثم العودة كي أُبيّن أن فعل الخروج صار من الزمن الماضي، وبعد محاولات أخرى لتبسيط الدرس، ثم تقييم مدى استيعاب التلاميذ، طلبت منهم تلخيص

الدرس على الكراسات، كان السؤال المُلح من قِبل الطلاب هو: ما هو كراس المادة الذي تريد أن نكتب عليه الدرس؟

في حصة التربية الرياضية وهي الحصة المحببة للتلاميذ يتم صرف التلاميذ إلى ساحة مفتوحة قريبة من المدرسة، ثم ينقسمون إلى فريقين، ويلعبون كرة القدم، وعندهم أن مؤشرات المهارة تقاس بمدى قدرة الطالب على ركل الكرة بقوة أو مدى ارتفاعها، ومما يثير استغرابي قدرة التلاميذ على الجري والمراوغة وهم حفاة في ساحة صلبة وغير مستوية دون إصابات. حدث مرة أن خلت المدرسة من الكرات فصارت حصة التربية الرياضية في الصف، ويتحول المدرس إلى حارس لحفظ النظام، وعندما فقدتُ الأمل في توفير المدرسة لكرات جديدة اقترحت على الطلاب شراء كرة جديدة للفصل من تبرعاتهم بحيث تحفظ عندهم ولا علاقة للمدرسة بها بوصفها حقًا من حقوقهم، وطبعًا لاقى المقترح موافقة الجميع، ثم سألت الطلاب سؤالًا: ماذا ستفعلون بالكرة المرشحة للشراء بعد نهاية العام الدراسي؟ سمعتُ بعض الأجوبة

المعقولة... وكان أغربها: يا أستاذ بعد نهاية العام الدراسي يجب تمزيقها!!!!

مضت الأيام على وتيرة متشابهة، كان داخل عزبتنا تقاربات معينة ترتبط بالانتماء للمنطقة، أو بمدى قدم الزمالة، أو الارتياح الشخصي، وعندما تفككت عرى العزبة -كما أسلفنا- اتضحت بعض التباينات، وصار التصنيف يمكن رصده ضمنيًا، ولأنني كنتُ مستجدًا فكان اختياري في عزبة الأغلبية، وكنتُ أصنف نفسي في الخط القريب من جميع الأطراف، وكان استقطابي يعني رقمًا غير مؤثر انضم إلى هذه المجموعة أو تلك، ولكن كنتُ أعلم أن مجرد ترددي اللافت مع مجموعة معينة سأحسب منها. كانت هذه اللعبة من التوازنات والأحلاف تتم بصمت ولا يدركها إلا من عاش داخل السكن، وهذه الوضعية الهلامية جعلتني أضطر لتحديد موقف واضح عندما تكررت جوانب من القصة في عزبتنا في (ثانوية الزبيري) بالجول بمديرية الثورة في قصة لا مكان لذكرها هنا.

مع نهاية العام الدراسي توادعنا وداع الأصدقاء، لقد كسبت من تجربة الانقسامات بعض الخبرات بالناس ونفسياتهم، ولكن كان وما يزال أمامي وقت طويل كي أفهم الناس، وأجيد فن مداراتهم.

عدتُ إلى المكلا بعد أن طلبت تحويل ملفي إلى مكتب التربية بالمكلا قبل بداية العام الجديد، وقبل أن تنتهي مدة تأجيلي بأيام، كان هناك من يستدعيني من معسكر المليشيا كي أستعد لأداء الخدمة العسكرية الإجبارية. في مكتب التربية والتعليم بالمكلا التي وصل إليها ملفي الوظيفي ظهرت إشارات مشجعة على تمديد تأجيلي عن الخدمة العسكرية، ولكن هذا يعني أن حلم الدراسة الجامعية سيبتعد مسافات جديدة، وربما يصير بعيد المنال، فكرت مليًّا ثم اخترت المضي في طريق العسكرة الإجبارية كي تستحق الأحلام الطموحة لذة الانتظار بأمل...

سحبت كل الأوراق وتوجهت باختياري إلى مكتب التجنيد الإجباري، وصار لا بد من العند وإن طال السفر...

(٢)
(حجر العالية)

اكتشفتُ في مكتب وزارة التربية والتعليم بالمكلا لا سيما في قسم التعليم الثانوي أنني الحلقة المفقودة، فقد كانت (ثانوية حجر) بالجول بحاجة مُلحة لمدرس لمادة التاريخ، فرغم الإغراءات المادية للتدريس في هذه المنطقة فإن سمعتها غير المشجعة بوصفها موطن مرض الملاريا، حالت دون قبول المدرسين النقلة إليها، وكنتُ لأسباب نفسية أكثر منها مادية مهيأً لقبول هذه النقلة.

كان الوالد أكثر أفراد الأسرة انقباضًا عند سماعه خبر قبولي العمل في حجر، فبحكم مهنته سائقًا لسيارة شحن عرف الكثير عن مسالك الطرق في حضرموت، ودخل بسيارته معظم بلداتها ومدنها، إضافة إلى ذلك ارتبطت حجر لديه بذكريات المرض الذي قدم به منها في إحدى رحلاته، لكن هذه الذكرى، وتلك المعرفة لم تصل به إلى طلب التراجع عمّا قررت، بل شجعني ودعا لي.

.... دلني أولاد الحلال على سيارة الشحن المتوجهة إلى حجر، كانت السيارة محملة بأكياس الأرز والقمح، وبعض الكراتين المغلقة، كان علينا أخذ (مقاعدنا) فوق هذه الأكياس. في مثل هذه الرحلات لا قيمة للوقت، ولا خط سير واضح لها، ولا توقيت محددًا لبداية انطلاقها، فقد ظللنا لأكثر من ساعة نتنقل في عدد من الأماكن داخل منطقة الشرج في مشهد بدا لي فيه الركاب كأنهم كائنات بشرية مكملة لحمولة السيارة، فالسائق لديه زبائن وحمولة في أماكن متناثرة، كان أغربها تحميل خمسمائة (طوبة)، وكان علينا المساعدة «واليد مع اليد تعين».

غادرنا منطقة الشرج الساعة الحادية عشرة صباحًا. منظر البدو المتسنمين سطح سيارة الشحن فوق كومة من البضائع لم يكن غريبًا لسكان مدينة المكلا، والجديد هو أنني لأول مرة أكون مسافرًا بهذه الكيفية في رحلة تستغرق ساعات. بعد خروجنا من ترانزيت منطقة الشرج، تنفسنا الصعداء، في حين استمرت عيون زملائي الركاب الفضولية تلاحقني بنظراتها الخاطفة المستفسرة في سرها

عن هذا المسافر الغريب الذي لا تنم ملابسه وحقائبه عن أصول حجرية تقليدية، كنت أقابل هذه العيون الفضولية بصمت هادئ، ونظرات مسالمة.. وعندما صار سقفنا السماء، وبينما ما يزال الطريق إلى مدرستنا بعيدًا، طاردتنا الشمس بأشعتها العمودية الحارقة مما اضطرني إلى استخراج (عمامتي) وربطت بها أعلى رأسي، ثم كان لي فيها مآرب أخرى، فقد استخدمتها لاتقاء الرياح الشديدة القادمة من مقدمة السيارة جراء سرعتها في المناطق المفتوحة، وهكذا صارت الشمس من فوقنا، والرياح من أمامنا، ومن تحتنا الغبار المتصاعد من حمولة السيارة، ومن حولنا الروائح المنبعثة من أنواع الأسماك المعلقة على جانبي السيارة.

بمغادرتنا مدينة (ميفع حجر) أصبح البحر من ورائنا، في تلك الأثناء شعرت بأنني غادرت مدينة المكلا. وللوصول إلى هدفنا كان على سيارتنا تجاوز حُسر شديدة الانحدار، وصعود عقاب عبر طرق ترابية ضيقة غير معبدة، وأحيانًا نكون على ضفاف وادي حجر. وعند صعودنا عقبة (حوتة) تذكرت حكاية الوالد الخطيرة مع هذه

العقبة عندما كان عائدًا من حجر ومعه حمولة من التمر، والحطب، وجذوع النخل، وعدد كبير من الركاب، وبينما هو في وسط هذه العقبة أدرك أنه فقد السيطرة على السيارة، وأنه لم يعد يستطيع التحكم في حركتها رغم استخدامه الكامل لكابح (بريك) السيارة، والهاند بريك (البريك اليدوي) ولم يعد أمامه -كما يقول- في تلك الدقائق الصعبة إلا الدعاء إلى الله، وبينما تهوي السيارة نحو المنحدر تمكن من حرفها إلى مرتفع صغير على جانب الطريق جهة الجبل فتوقفت...

يصف الوالد هذه (الرحلة) بأنها أخطر الرحلات في حياته المهنية، وكان أول إجراء قام به هو الطلب من الركاب الخروج من السيارة والهبوط مشيًا على الأقدام إلى أسفل العقبة مع تخفيف حمولة السيارة بأخذهم ما يستطيعون حمله، المهم تمكن الوالد بعون الله من الوصول إلى بر الأمان.

ها نحن الآن وجهًا لوجه أمام عقبة (حوتة)، ولكن في ظروف مغايرة، وبعد أن تم توسيعها وتهذيبها، ومع هذا ظل تأثير الحكاية القديمة يخيم في المكان. كنتُ أسترق النظر لعلي أرى في العقبة طوق

نجاة رحلة الوالد القديمة، ويبدو أن تداخل هيبة المكان مع استدعاء الحكاية هو مبعث هذه الخاطرة، ولا يخفى هنا أن غرض الوالد في الحديث عن بعض تجاربه التهيئة لمواجهة مصاعب الحياة، والدفع لخوض التجارب.

قبل وصولنا إلى (مدينة) الجول بما يقارب ربع الساعة توقف السائق عند مطعم على الطريق لتناول وجبة الغداء، كنتُ أرغب في الوصول إلى محطتي الأخيرة لأستريح بعد هذه الرحلة المضنية، ولكن ما «باليد حيلة» كما يقال، فسائق السيارة هو في الغالب قائد الجميع، وقد تفاوض نيابة عن الركاب مع صاحب المطعم، كانت المفاجئة بالنسبة لي هو الانتظار حتى يفرغ صاحب المطعم من الذبيحة، ثم شيّ اللحم، وطباخة الرز، بمعنى آخر علينا استغراق ما يقارب الساعتين لانتظار الوجبة، «والراضة من الرحمن والعجلة من الشيطان».

في هذه الاستراحة الطويلة الإجبارية انشغل الناس بأمورهم، وآثر البعض تزجية الوقت بلعبة الدمنة أو بالثرثرة، في حين استمررتُ في لعب دور المتابع المستسلم لما يدور. من أبرز ما لفت نظري

عفوية الناس وبساطتهم، فمجموعتنا التي اختارت وجبة الرز مع اللحم قُدّم لها الغداء بشكل جماعي وكأنها أسرة واحدة، أو صحبة واحدة رغم أننا لا نعرف بعضنا، وقد حطمت هذه اللمّة الإنسانية بنكهتها الدافئة ذلك الصمت الذي تقمصته خلال مدة الرحلة، وتركت انطباعًا مريحًا في نفسي بدد من انزعاجي الداخلي جراء هذا الانتظار الطويل، وتم دفع ثمن الوجبة بالتساوي، وبأسلوب ديمقراطي حضاري.

وأخيرًا وصلت إلى مدرستي.. ولأنني آخر المدرسين الواصلين فقد تم تسكيني مع زميل من منطقة الصدارة بحجر في غرفة مستقلة بعيدة بعض الشيء عن السكن الجماعي لبقية الأساتذة، ورغم امتعاضي من هذا الوضع والإفصاح عن رغبتي بالسكن الجماعي، فإن زميلًا وصديقًا مكلاويًا نصحني بالقبول لكي أبتعد عن ما يدور في العزبة الكبيرة من مماحكات وتباينات.

المدرسون المعزبون في السكن الجماعي كلهم من خارج مديرية حجر؛ موزعون على ثلاث غُرف، بمعدل ثلاثة إلى أربعة في الغرفة

الواحدة، ويُعد هذا التقسيم بموجب قانون العُزب حالة متقدمة. أما الشقة التي أسكنها مع زميلي هي في الأصل شقة ضمن سلسلة من الشقق المتلاصقة بُنيت لتلبية حاجة كوادر المديرية، وهي على نمط واحد تتكون من غرفة مساحتها (٥×٥ متر)، وصالة مكشوفة، ومطبخ، وحمَّام.

في عزبة الأصدقاء الكبيرة أدركت من الوهلة الأولى بعض التباينات في وجهات النظر بين بعض الأصدقاء؛ لهذا حرصت على النأي بنفسي عن ما يمكن احتسابه تكتلًا لجهة على أخرى، يساعد على ذلك ابتعاد مسكننا عن تلك الأجواء، بل حرصت على أن تكون علاقتي متوازنة مع الجميع دون أن يلغي ذلك العلاقات البينية بحسب الاهتمامات المشتركة، لكن هذه الروح التسامحية أو التوافقية أخفقت عندما التحمت بالواقع، وبهذا أصبحت بإرادتي أو بغيرها محسوبًا على (جناح المكلا).

كان نظام الأربع سنوات للتعليم الثانوي (النظام الحديث) هو المطبق في المدرسة كسائر المدارس في (جمهورية اليمن الديمقراطية

الشعبية) بعد إلغاء نظام القسمين العلمي والأدبي، لهذا امتدت مادة التاريخ في كل الصفوف الدراسية، ولأن كل مستوى دراسي يتكون من صف واحد باستثناء المستوى الأول صار مدرس التاريخ ضيفًا على فصول المدرسة كلها، أي مدرسًا أربع مقررات دراسية، وفي ذلك من الصعوبة ما فيه.

ثانوية الزبيري للبنين بالجول هي الوحيدة على مستوى مديرية حجر؛ لهذا فهي تعد ملتقىً لكل أبنائها، وقد اختيرت (مدينة) الجول عاصمة للمديرية، ومقر المدرسة لموقعها الجغرافي المتوسط في وادي حجر، ولتشجيع أبناء المناطق البعيدة على الدراسة فيها. وفّرت المدرسة للطلاب السكن والغذاء المجاني، وهذا التجمع ساعدنا – إلى قدر ما – على معرفة التركيب السكاني، والخصائص المكانية، وربما الثقافية لمكونات (المجتمع) الحجري.

سلوك التلاميذ بشكل عام ممتاز، وهو يعكس السلوك العام عند أبناء الريف الذين يظهرون احترامًا لائقًا للمدرسين، وانصياعًا للَّوائح المدرسية. ويمكن تقدير نسبة الذكاء في المدرسة عمومًا

بالمتوسطة، ولا يخلو الأمر من وجود استثناءات هبوطًا وارتفاعًا. وكما سمحتُ لنفسي بتقدير مستوى التلاميذ سمحتُ للتلاميذ بتقييم أدائي التدريسي في أيامي الأخيرة في المدرسة من خلال مجموعة من الأسئلة الاستبيانية قدمتها لهم من قبيل: كيف ترى أداء المدرس؟ الصوت، طريقة الأسئلة، الحركة في الصف، المعاملة.. إلخ، ثم السؤال المفتوح في إبداء الملاحظة أو النقد أو النصيحة.. كان التفاعل جيدًا وقد أثارت اهتمامي أكثر الملاحظات السلبية.

تمضي أيام الدراسة... نصف نهارنا يكون داخل المدرسة وحتى الساعة الرابعة عصرًا لا يشعر أغلب المدرسين بالفراغ؛ فساعات ما بعد الدوام تمضي في التحضير لوجبة الغداء، أو في الاستعداد لالتهامها، ثم القراءة السريعة، ونوم القيلولة، واحتوت لعبة كرة القدم عصريات عديدة عند عشاق كرة القدم من المدرسين.

اكتسبتُ من زملائي (جناح المكلا) عادة المشي ليلًا بعد تناول وجبة العشاء، يتكون الموكب في معظم الأحيان من ثلاثة أشخاص رابعهم راديو (ناشنال) معير على إذاعة لندن وساعة (بيج بن)،

وخط سير الرحلة اليومية الجول - الحصين، والمسافة تقريبًا ساعة ونصف الساعة ذهابًا وإيابًا. تمضي الرحلة اليومية بمحاذاة الطريق الترابي، على ضوء القمر، وبهدي النجوم المرصعة في السماء، طابع هذه الرحلة الليلية ترفيهي رياضي ثقافي، عند الآخرين الأمر مختلف ومريب إذ اكتشفنا بعد برهة من الزمن باحثين عن سر رحلة المدرسين، وإذا كانت في الظنون بعض الآثام الواجب تجنبها، فعند رجال الأمن الظن منهج راسخ لازم لعملهم، ومع هذا من حقنا وبأثر رجعي أن نتساءل: يا ترى ماذا كتب المتجسسون عن الرحلة (المريبة) في براري (مدينة) الجول وضواحيها؟ وكيف هو ظنهم في ثلاثة أو أربعة من المدرسين البائسين خامسهم مذياعهم.

لكن أخطر ما في هذه النزلات الليلية هو الأخبار المنقولة عبر إذاعة لندن التي تبشر بسقوط دول أوروبا الاشتراكية. فقد شهد العالم في التاسع من نوفمبر ١٩٨٩م سقوط جدار (برلين)، وبالقدر الذي زلزلت هذه الأخبار العالم، هزت الأفكار المطروحة حول حتمية سقوط الرأسمالية وبزوغ فجر الاشتراكية، وشغلت هذه

الأخبار المتدفقة حيزًا كبيرًا من اهتمامنا. كنَّا كغيرنا من المستقلين في حالة شماتة بأصحاب الحكم الاشتراكي، وندرك أن ساعة الخلاص قريبة. وكما تزلزلت أوروبا الاشتراكية ارتجت (اليمن الاشتراكية)، وبدأت تظهر حالات محدودة من الاحتجاجات ربما بشعارات مغايرة، ولكنها تحمل رسائل واضحة.

وفطن الحكام لتداخلات المشهد الداخلي والدولي، وبدلًا من حل الاختلالات والأخطاء والخطايا بالمصالحة مع الناس ومع أنفسهم، قذفوا بهم وبأنفسهم في قرار الوحدة الاندماجية غير المنظم باتفاق تمهيدي في ٣٠ نوفمبر ١٩٨٩م، وبالنسبة لمشاعر الناس في (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) في تلك الأيام فأغلبهم يرى في الوحدة طوق النجاة من نظام حكم سلبياته طغت على إيجابياته.

وبتأثير تلك المتغيرات وصلت عدوى الاحتجاجات الطلابية إلى مدرستنا، فقد اشتكى الطلاب لأول مرة من انقطاع المياه، وشكلوا ممثلين عنهم للقاء مأمور المديرية، المأمور من الحرس القديم، ومن أصحاب الرصيد النضالي المشهود له، وهذه (المؤهلات) تكفيه لأن

يظل حاكمًا إلى ما شاء الله. المهم عندما خاطبه الطلاب بشكل حضاري عن مشكلتهم قال لهم: «وهل تريدونني أن أوفر لكم الماء من دولابي»، لا أعتقد أن الرد يحتاج إلى تعليق، واللافت ما حصل بعد ذلك إذ نظر أهل السلطة في المديرية لهذه التحركات الطلابية بعين الريبة، واجتمعوا بالطلاب والمدرسين، وأبرز ما أثار الاهتمام في هذا اللقاء تضمين بعض رجال الأمن في كلماتهم إشارات مستترة توجه أصابع الاتهام للمدرسين. وعلى أية حال فقد تمخض اللقاء عن روح وطنية أظهرها بعض الطلاب، وتبرعوا بالاستعداد للقيام بالحراسات الليلية لحماية الوطن من الأعداء، والقوى الظلامية!

في الفصل الدراسي الثاني نجح زملاء (جناح المكلا) في فك ارتباطهم من العزبة الأصل، وانتقلوا إلى السكن في غرفتنا، وصرنا أربعة أعضاء، كان أهم أعضاء العزبة الأستاذ غازي صالح زحفان -يرحمه الله- فهو مكلاوي المولد، شحري الدم والأصل، لهذا لا تخلو عزبتنا من البسمة الدائمة، والضحكة الملعلعة من خلال تعليقاته وطرائفه. تكونت العزبة على أساس تراض وانسجام؛ لهذا لا يوجد

في عزبتنا قانون الطبيخ المنظم، فمن يحضر مبكرًا يشرع في تجهيز وجبة الغداء، ويساعده من يليه، ويكمل من يأتي وهكذا، مدعوم هذا النظام الحضاري بثقة متبادلة، وانسجام سلس.

ساعد هذا الفصل في تعزيز العلاقات بين العزبتين وكما يقال: «ابعد عن حبيبك يحبك»، لكن مجموعتنا تمردت عن نظام العزبة (الأم)، وذلك بفتح علاقات مع العزب المجاورة للمدارس الموحدة، صرنا في نظرها وكأننا لا نراعي خصوصية الاختلاف التراتبي العلمي، ثم إن هذا التقارب - الذي لا يحمل أغراضًا عدوانية - أظهر بشكل غير مباشر وغير مقصود ضعف اندماج أفراد العزبة الأصل جراء انعزالهم التطوعي. ومن جانب آخر ربما عمقت هذه الوضعية شكوك الزملاء، وحركت ظنونهم فنحن غالبًا ما نكون قريبين من مطبخ الطلبة، ومن مستودعات التموين!

لابد أن نسجل هنا بأن كل متطلبات المطبخ كانت موفرة للمدرسين، وعليه فإن الرواتب تظل سليمة طول أيام الشهر مع استثناءات لا تُذكر، وكانت (علاوة الريف) هي الأعلى مقارنة بأرياف

حضرموت الأخرى؛ لهذا فإن حجر تُعد بالنسبة لأي شاب يجهز نفسه للزواج من منطقة الصفر فرصة ذهبية مع بعض التحفظات.

في حضن الطبيعة وسحر الريف وعفويته كانت لنا سهراتنا (الخمسة نجوم) في المطعم المحاذي للطريق، وإن شئت فقل المقهى هنا نسفح برضانا بعضًا من دنانيرنا، بعد أن تسفح دماء الأغنام تحت شجرة سدر غير بعيدة من النزلاء الذين يتمكنون من مشاهدة مراسيم الوليمة من الذبح إلى الشيّ على الأحجار الساخنة، مرورًا بتجهيز الرز، وتقطيع البصل، وبقية التفاصيل الأخرى... ويفضل أغلب الزبائن أخذ حصتهم من الذبيحة طازجة، أما نحن فلا يروق لنا اللعب مع النار، ونترك الأمر لصاحب المطعم، أو لمن تطوع من تلاميذنا، وهذا (البذخ) في الصرف غالبًا ما يكون في ليلة الجمعة.

لكن إغراءات حجر لا تقاوم لهذا عاد في السنة الثانية الطاقم التدريسي كاملًا إذا لم تخنِ الذاكرة، بيد أن الأمور لم تكن بسحرها القديم، فقد أُجبرنا على الدمج القسري بين العزبتين، وهو قرار مفاجئ لم يراع شحنات التاريخ، ولا سماحة الجغرافية... وهكذا

فبينما شهدنا عند نهاية عامنا الدراسي وحدة طوعية متسرعة بين جمهوريتين في ٢٢ مايو ١٩٩٠م، دخلنا في عامنا الدراسي الجديد في وحدة قسرية غير مدروسة بين عزبتين.

عامنا الدراسي الجديد هو أول عام كامل في عهد (الجمهورية اليمنية) لهذا يمكن تسميته بـ(عام عسل الوحدة)، كانت الآمال كبيرة، والأحلام بلا حدود، وكانت أخبار التسويات واحتمالات الزيادة في الرواتب ترفع سقف التوقعات، ولأن الوحدة الاندماجية دخلت بلا مقدمات كالقدر المحتوم فقد أفرزت أوضاعًا جديدة، وتعقيدات غير محسوبة، وأصاب منطقة حجر شيء مما أصاب الناس، فهذه المنطقة مشهورة بغابات أشجار النخيل المؤممة بموجب الانتفاضات الفلاحية، في بداية العهد الوحدوي الجديد حاولت الدولة إيجاد تسويات عاجلة لإرجاع الحقوق إلى أهلها، وحضر المسئول الحزبي إلى مديرية حجر (المجيدي) لبحث السبل المناسبة للتسوية بين الملاك القدامى (الأصليين)، والملاك الحاليين بموجب القوانين الثورية، واجتمع البدو والمشايخ، وفي مكان قريب اجتمع الفلاحون.

كانت المواجهة في جوهرها بين حقبتين زمنيتين تداخلتا في الزمان الخطأ والمكان الخطأ. تابعت المشهد من سطح مسكننا إلى أن ارتجت (مدينة) الجول بالزامل الذي يقول: «وحيا وسهلا وحيا بالمجيدي وعادك يا الصبي بتقول شيخي وسيدي»، يفصح الزامل عن بداية صفحة جديدة في تاريخ حضرموت ونهاية صفحة، ويحمل دلالات الصراع الطبقي الذي سعى النظام السابق في القضاء عليه بالقوة «وعنف بالعنف، لولا العنف الإقطاعي ما مات». إن ترحيل المشاكل وإنكارها، وأحيانًا التعامي عنها، سنة عربية بامتياز لا تزال تقذف بهم في مهاوٍ عميقة.

وهكذا شغلت الوحدة الناس في حجر كبقية المناطق مدة من الزمن كلٌّ بحسب مركزه ومكانه في المجتمع، فبينما ترك البعض لأحلامه العنان، بحث البعض فيها عن أرضه القديمة، أو بيته المؤمم، أو ثأره المكبوت... وهناك من أراد أن تعود السنين إلى ما قبل ٢٣ سنة، ولا شك أن السنين تحركت لكن في مجارٍ غامضة غير المجاري المأمولة.

عزبتنا الكبيرة كغيرها من العزب تمثل تجمعًا إنسانيًا متنوع الاهتمامات والرؤى، وقد أجبرتهم طبيعة المهنة على العيش في مكان واحد، وغالبًا ما تكون تباياتهم تحت السيطرة ولا تتعدى أسوار السكن، وبالقدر الذي لا يترك جروحًا. وما نود الإشارة إليه هنا أننا فقدنا نحن أصحاب العزبة الصغيرة شعورنا السابق بالدفء في عزبتنا الكبيرة، ولكي تنفّذ المهام على ما يرام لا بد من نظام صارم، وترتيب مسبق، وصارت الأيام أكثر طولًا مما ألفناها؛ لهذا كانت تلك السنة مع أسباب أخرى آخر عهدنا بمدرستنا.

وهكذا لم يبق لعزبتنا الكبيرة من حجر إلا ذكرى حسنة محسوبة من أعمارنا، وتجربة لنا فيها وعلينا، ولقمة حلال مشتركة ذابت في أحشائنا، ومكان للعبادة عمدته جباهنا، وقلوب لا تذكر أهلها إلا بما يسرهم.

ثالثًا : مسيرة النجاح .. معوقات ومقترحات *

(شذرات من التجربة الذاتية)

معظم الناس يتطلعون إلى النجاح في حياتهم، ولا يوجد عاقل يحب الفشل. ولعله من البديهي القول : ما أصعب النجاح! وما أسهل الفشل! لهذا لا أحد يتكلم أو يكتب كيف تكون فاشلاً ! والعكس هو الصحيح؛. النجاح يحتاج إلى عدة قرارات، والفشل يكره القرارات ولا يعترف بها، والقرار الوحيد الذي يعترف به الفاشل، أو يريحه، هو أن يكون فاشلاً.

وحقيقة الأمر نحن لا نستحسن مفردتي الفشل والنجاح، ودائمًا عندما كنت أتحدث إلى طلابي في المرحلة الثانوية ثم في الجامعة أستخدم لفظتي مجتهد وغير مجتهد. وهكذا فإن النجاح أو الاجتهاد حركة

* مداخلة ألقيت في ثانوية المكلا النموذجية للبنين.

مستمرة وحياة متجددة، لهذا آثرنا أن يكون العنوان (مسيرة النجاح)، وهي مسيرة لها بداية في حياة الفرد الناجح وليس لها نهاية.

إن النجاح محدود، والطموحات كالأحلام مفتوحة، وإذا كان بالإمكان لمس ثمرات النجاحات وتذوق حلاوتها، فإن سماء الطموحات عالية وأشرعتها ممدودة، يشعر من حلَّق فيها بالظل الوفير، والأمل الكبير، والسلام المنير.

وفي مسيرة النجاح يخطئ من يظن أو يقول إنه وصل إلى المحطة الأخيرة. وعلى سبيل المثال: الثانوية العامة محطة من محطات النجاح في الحياة الدراسية توصل إلى محطة الجامعة أو إحدى كلياتها للحصول على شهادة البكالوريوس أو الليسانس، وهذه الشهادة محطة إلى محطة الماجستير، والأخيرة إلى محطة الدكتوراه. هل انتهى المشوار؟ الإجابة بالطبع لا، فالدكتوراه شهادة فقط تؤكد أنه من تحصل عليها (بحقها) بإمكانه أن يكون مشروع عالم، أو متخصصاً في مجاله، ومن ثم فهي البداية وليست النهاية. وشخصيًا شعرت بعد حصولي على الدكتوراه بذلك الشعور، ولكنني أشعر بصدق أنها بداية أصعب من كل البدايات فالحمل ثقيل والمسؤولية كبيرة.

في مسيرة النجاح الطويلة وعلى محطاتها يوجد أعداء النجاح، اعلم أنك عدو من أعدائهم وغريم من غرمائهم، ولكنهم شأنهم في ذلك شأن الشياطين إخوانهم، فكيدهم ضعيف، ومهاراتهم محدودة، وأرضهم مكشوفة. لكن لا تستهن بهم، فلا بد من الاستعداد لكل الاحتمالات. وازن بين خططك قريبة المدى وبعيدة المدى (التكتيكي والاستراتيجي)، ودائمًا إذا عزمت فتوكل على الله، وأهلنا علمونا «نقايس عشر ونقطع مرة واحدة». وعندما تصل إلى محطة من محطات النجاح لا تقل ما قاله قارون +إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي"، ولكن قل هو توفيق من الله خصني به بعد أن أخذت بالأسباب.

يقول الدكتور إبراهيم الفقي: «عندما نقول إن الناجحين هم كذلك بسبب الحظ فإن ذلك صحيح إلى حد ما فالأشخاص الناجحون فعلًا عندهم حظ كبير لأنهم هم الذين صنعوا هذا الحظ لأنفسهم، فهم يعملون بجد واجتهاد، ومستوى أدائهم مرتفع، ويصبحون الأحسن في مجال عملهم، ويتميزون بالصبر والمثابرة والانضباط، بالإضافة إلى أنهم يقحمون أنفسهم في مخاطرات

ومغامرات أكثر من الأشخاص العاديين، ويتعلمون من أخطائهم، ومجموع كل هذا يفسر أنهم ذوو حظ كبير».

يقول المتنبي:

عَلى قَدْرِ أهْلِ العَزْم تأتي العَزائِمُ

وَتأتي علَى قَدْرِ الكِـرامِ المَكـارمُ

وَتَعْظُمُ في عَينِ الصّغيرِ صغارُها

وَتَصْغُرُ في عَين العَظيمِ العَظائِمُ

ويقول شاعر آخر:

شبابٌ قُنعٌ لا خير فيهم وبورك في الشباب الطامحينا

وفي هذه الوريقات سنوجز الكلام في نقطتين الأولى تتعلق بصراع الذات داخليًا مع نفسها ومع الآخر لما لذلك من علاقة بمسيرة النجاح سلبًا وإيجابًا. ثم سأتحدث عن بعض جوانب من التجربة الشخصية المتواضعة لعل فيها عبرة وفائدة.

ومعروف أن أسوأ وأخطر ما ينغص على الإنسان حياته -كما يقول الكاتب المصري مرسي عطا الله- أن يعيش في حالة صراع

سواء مع غيره أو مع نفسه، لأن الصراع هو أحد أطراف معادلة الدمار واستنزاف الجهد والوقت فيما لا فائدة منه ولا ضرورة له، وإذا كان الصراع مع الغير ليس خيارًا وحيدًا لك وإنما قد يفرض عليك، فإن عليك تجنب نفسك شرور ومخاطر الصراع الذاتي مع النفس. ولا يجوز أن يقضي الإنسان معظم عمره في جلد للنفس والذات، يلطم الخدود، ويبكي على اللبن المسكوب، ويتصور أن عدم نجاحه مرة وربما عدة مرات معناه أن الدنيا قد أدبرت بوجهها عنه. إن هناك فرقًا كبيرًا بين ضرورات مراجعة المرء لنفسه وبين الانزلاق في خنادق اليأس، فالمرء يمكن أن يشعر بالسعادة إذا امتلك شجاعة المراجعة الصادقة لأفعاله والاعتراف دون خجل بأن ما وقع فيه من أخطاء لم يكن شيئًا عفويًا وإن كانت وراءه أسباب محددة، بينها مثلًا الاعتماد في قراراته على معلومات خاطئة، أو عدم القدرة على تقدير الأمور تقديرًا صحيحًا.

ومعنى ذلك أن توفر الانسجام الداخلي للإنسان مع نفسه، والقدرة على مراجعة تحركاته وتصرفاته، هو السبيل الوحيد لحمايته

من أوهام الفشل والاضطهاد وسوء البخت، ومن ثم عدم الوقوع في براثن الألم المزمن الذي يؤدي إلى صراع داخلي مدمر. ومع أن واقع الحياة يؤكد لنا أن مثل هذا الانسجام الداخلي أمر نادر بسبب الصراع بين كائنين يعششان داخل كل واحد منّا، إلا أن ذلك الاتفاق مع النفس أمر ممكن بالنسبة لمن يملكون إرادة قوية وعزيمة صلبة وإيمانًا صادقًا.

وكان سقراط مصيبًا عندما أطلق مقولته الشهيرة «اعرف نفسك»، ويقال في الأثر: «رحم الله امرأً عرف قدر نفسه». والحقيقة لكي يستمتع الإنسان بهدوء النفس يجب عليه أولًا أن يفتش في ذاته، وأن يكتشف عوامل التنغيص الداخلي ويسارع بالتخلص منها.

وإذا عرَّجنا على الملف الشخصي - لهذا المتحدث أمامكم- ستجدون صاحبه شخصية عادية جدًا، ومن ذلك الصنف من خلق الله الذين يعتمدون في أغلب الأحيان بعد الله على جهودهم الذاتية، ففي مسيرة حياته الماضية تجاوز عددًا معقولًا من المحطات بعد أن عانى الكثير من المطبات الطبيعية والصناعية، واضطر إلى استخدام

وسائل نقل بطيئة، ولكنها كانت تمضي إلى الأمام... صحيح هو الآن يضاف قبل كتابة اسمه حرف الدال الذي يعني دكتور وليس (.....)، ولكنه لا يزال يشعر أنه في بداية الطريق.

إن النجاح أمر نسبي، والنجاح في العمل أو في الدراسة ما هو إلا حلقة من حلقات عديدة في الحياة يسعى الإنسان الطبيعي لتحقيقها ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

بدأ تفوق صاحبنا منذ المرحلة الجامعية الأولى (البكالوريوس)، ثم المرحلة الجامعية الثانية (الماجستير والدكتوراه)، وقبل ذلك كان ترتيبه من العشرة الأوائل، ولم يكن له شرف تحقيق الترتيب الأول، أو الثاني، أو الثالث.

في بداية عام ١٩٨٦م ظهرت نتيجة الفصل الدراسي الأول قسم التاريخ كلية الآداب التربية والعلوم كان ترتيبه الثالث بعد زميلتين. وبعد أن درس (صاحبنا) النتيجة، ووجد مساحة المتنافسين قوية قرر بينه وبين نفسه الدخول في حلبة المنافسة بهدف الوصول إلى المربع رقم واحد. كان تصميمًا صادقًا، وكان الاستعداد شاقًا،

فقد تخلص من بعض الالتزامات (الصديقة)، وأعاد ترتيب الزمن، وحاول تطويعه لصالحه. ولأنه من عُشاق النهار ومن نوّام الليل، فكان الفجر أول صديق لازمه وتمسك به، وركز فيه على المقررات الدراسية التي تحتاج إلى قراءة متأنية. وكان أيضًا يسترق من ظهرية وعصرية كل يوم ما شاء له أن يسرق، وإجازته الحقيقية تبدأ منذ عصر الخميس إلى مساء يوم الجمعة، وفترة راحته اليومية تبدأ من بعد صلاة المغرب إلى بعد صلاة العشاء، ويقضيها بالتجوال حول المدينة، أو بلعب الورقة (الباشتا) في المقهى القريب من مسجد بازرعة بحي برع السدة بالمكلا، وغالبًا بعد الساعة التاسعة مساءً يغط صاحبنا في النوم العميق.

وهكذا وضع صاحبنا لنفسه برنامجًا صارمًا كانت القراءة اليومية المنظمة منذ الأيام الأولى للدراسة أهم علاماته، وهو برنامج استمر حتى محطة البكالوريوس (والاستثناءات لا تلغي العموميات).

بتوفيق من الله وبعد سعي حثيث تحصل عام ١٩٨٩م على شهادة البكالوريوس بتقدير عام (جيد جدًا)، ولأنه الأول على دفعته كان

يحدوه الأمل أن يكون معيدًا في الكلية، ويواصل مشواره... ولكن المفارقة الأليمة التي واجهته هي أن عليه الذهاب إلى مدينة عدن في شهر سبتمبر ليستلم شهادة التفوق العلمي، وفي الوقت نفسه عليه أن يذهب إلى العمل بمحافظة أبين حيث نقلته الوزارية. ومعروف في دول التخلف غالبًا ما يكون المتفوقون من غير ذي الحظوة مجرد أرقام ميتة يقذف بها موظفون ميتون ليملأوا فراغات معينة، ثم يعودون إلى بيوتهم!!! كان صاحبنا قد رفض الانضمام للحزب الحاكم وقتئذ لأسبابه الخاصة، رغم نصيحة الناصحين له بأن ذلك ربما يسهل له الخطوات ويفتح الأبواب، ولكنه تمسك بوجهة نظره تاركًا المقادير تقذف به أنّى تشاء، وقد سمى هذه الرحلة في أوراقه الخاصة (رحلة التكريم والتركين)، كان يشعر ببعض الألم، لكنه كان ينام قرير العين راضيًا عن نفسه.

في محافظة أبين ساعده الحظ وأعيدت نقلته إلى حضرموت، ليتحول بذلك من مروج أبين الخضراء إلى جبال حجر الحمراء، وسبب قبوله بالتدريس في حجر -رغم شبح مرض الملاريا المرتبط بها-

يعود إلى العرض المادي المغري الذي كان يقدم من إدارة التربية بالمديرية.

بعد عامين دراسيين في ثانوية حجر، وسنتين في المكلا، فشلت متابعاته في التعيين في الجامعة، على الرغم من الوعود التي يقولها المعنيون بإجراء اختبارات المفاضلة عند أي تعيينات جديدة، وفي الوقت ذاته كان هناك من يعين في قسم التاريخ بعيدًا عن المعايير العلمية، وفي غياب عدالة الفرص.

ولم تكن محاولات التعيين في الجامعة هي كل تحركاته، فقد فتح جبهة جديدة عبر مكتب وزارة التربية في المكلا، وقابل المدير الدكتور صالح عرم وقدم له رسالة ذكر فيها رغبته في مواصلة دراسته الجامعية العليا، وأحيل الطلب الغريب إلى الجهة المعنية، واستقر، ولا يزال الطلب موجودًا!!! ثم ضاقت عليه الأمور وكاد اليأس أن يكون له السيادة، ولكن بعون الله بعد أن استحكمت حلقاتها فرجت... تلفزيون قناة عدن يعلن فتح برنامج الماجستير في التاريخ في جامعة عدن كلية الآداب، بشروط تنطبق على صاحبنا الذي لم يكذب الخبر،

ففي صباح اليوم التالي كانت رسالة طلب الترشيح للدراسة على مكتب نائب المدير لانشغال المدير، وفي البداية سار الطلب الغريب سيرًا حسنًا، ثم اصطدم بعقلية لا تحب العلم، أو لعلها لا تعرفه، وتدحرجت تفاصيل متعبة -لا داعي لذكرها- حتى وقَّع المدير الأستاذ حسن باعوم وبكل سرور على رسالة الترشيح.

وبعد مقابلة القبول التنافسية، قُبل في برنامج الماجستير، وكان لزامًا أن يتجاوز السنة التمهيدية قبل تسجيل موضوع الرسالة، ومن المهم الإشارة إلى أن تكاليف الإقامة من سكن وغذاء ومواصلات تحملها صاحبنا من راتبه، وعليه أيضًا دفع رسوم الدراسة، وهذه الالتزامات جعلته يؤجل فكرة الزواج الملحة التي كانت تراوده.كان بعض الأصدقاء يعده من المحظوظين، وعده البعض الآخر من ذوي الوساطة الكبيرة، ولا أساس لذلك من الصحة، وحقيقة الأمر كان ما ميزه عن زملائه أنه أخذ بزمام المبادرة وتوكل على الله.

وبعيدًا عن التفاصيل التي ربما تتطلب أوراقًا كثيرة تتوجب الإشارة إلى أن صاحبنا قد ناقش رسالته، وتحصل على شهادة

الماجستير عام ١٩٩٩م، وذلك بعد كفاح ومعاناة ودموع وصبر وإحباطات وديون، على الرغم أنه في أثناء الدراسة كان إلى جانب عمله مُدرسًا في ثانوية المكلا، درّس في المدارس الخاصة ولا سيما في مدرستي الأحفاد، والفكر.

بعد حصوله على شهادة الماجستير بأربعة أشهر عُيّن مُدرسًا في كلية التربية والآداب جامعة حضرموت، وهو بهذا عاد بعد عشر سنوات إلى المكان الذي يرى أنه يستحقه وحلم به، ثم بدأت أبواب الحظ تنفتح رويدًا رويدًا.. فبعد سنة تهيأت له فرصة الدراسة في بغداد لنيل الدكتوراه على حساب الجامعة، وبعد ما يقارب ثلاث سنوات وقبل بضعة أشهر من المناقشة النهائية أغلق بوش الابن أبواب الحظ واحتلت قواته العراق، وبعد أربعة أشهر من الاحتلال دخل بغداد دخول المنهزمين في مشهدٍ حزينٍ، وفي وضعٍ فُككت فيه مؤسسات الأمن الوطني العراقي، وتدهورت الخدمة الكهربائية بحيث وصلت ساعات الانقطاع الكهربائي في صيف بغداد إلى ١٢ ساعة في اليوم.

وفي جوٍ مشحونٍ بالخوف والتوتر، وملوّث بقوات الاحتلال، مكث صاحبنا ثلاثة أشهر حتى استكمل دراسته ليغادر بغداد نهاية عام ٢٠٠٣م، ورئيسها صدام حسين ما يزال يقود المقاومة على حسب ما نسمع، والأمريكان يعرضون الملايين مقابل رأسه حيًا أو ميتًا، أما رأس صاحبنا فقد خرج بفضل الله من بغداد سليمًا مرفوعًا، ولكنه في أعماقه يدرك أنه لم يصل بعد إلى المحطة الأخيرة وأن المشوار ما يزال طويلاً...

رابعًا : مشاهدات ووقفات

الضامن

ما أكثر المفارقات والمتناقضات في حياتنا ومجتمعنا!! قليلها مضحك ومسلٍّ، وكثيرها منغص ومبكٍ. في أيام غابرة وعندما كانت الدولة مسيطرة على الاقتصاد والسوق كانت تجبر الناس على شراء سلع معينة عند شراء سلع أخرى ولا فكاك من ذلك. والتقط هذه الثنائية الغريبة أحد ظرفاء غيل باوزير المشهورين (سالمين حسين الحضرمي)، فعند زيارة أحد الرفاق الكبار لهذه المدينة جلس في مقهى هذا الظريف طالبًا كوبًا من الشاي، كان الزبون بالنسبة له أعزّ الطلب وفعلًا بعد الحفاوة والمجاملة تقدم بالشاي مع بطاريات الراديو، في البداية استغرب الرفيق أن أُجبر على احتساء الشاي مع البطارية التي ستدخل في الحساب، ولكنه سرعان ما فطن لدهاء الظريف وخبثه الفاضح. وضحك على نفسه وعلى رفاقه. وهذه المفارقة جعلت الدولة التاجر تعيد الحسابات، وتبعد عن بعض الشبهات.

وفي تلك الأيام الخوالي كانت الدولة هي المالك لكل شيء والمفكر الوحيد، ولأنها كذلك وجدت أن مصلحة المشترين والمتفرجين عدم مغادرة أرض الوطن إلا بضامن معروف، وبعد عذر مقبول، وذنب مغفور. إن قانون الضامن ومنع الناس من السفر من الأخطاء الكبيرة لحكومة الرفاق. إذ حُوّل الوطن إلى سجن كبير في وسط كانت فيه ثقافة السفر والانتقال والهجرة هي السائدة. ولكن التاجر السجّان قدم من المغريات والتسهيلات ما ظن أنه يكفي لأن يغلق باب الهجرة، والضياع والمهانة في أرض الأغراب، ومما قدمه: توفير السلع الأساسية بأسعار مناسبة ومدعومة، وتوفير العلاج المجاني، والتوسع في مراحل التعليم وجعله مجانًا إلى المرحلة الجامعية، مع صرف إعانات شهرية للطلاب، ووفر أمنًا وسكينة، وسيادة مقبولة للقانون. صحيح أن الدولة التاجر أخذت الكثير من أموال الناس بالباطل المقنن، وشلت حركة المجتمع الاقتصادية، ولكنها لم تصرفه على أبنائها الرفاق، وبعد الوحدة اليمنية عاد هذا المال إلى أصحابه عودة الحبيب للحبيب.

وقد يتفق الناس أو يختلفون على هذه الحقبة وهذا حقهم، ولكن من المبكر أن يقول التاريخ كلمته... أيها الرفاق القدامى والجدد... الحرية لا تقدر بثمن...

وفي هذا العصر الذي يوصف بالوحدوي عاد الضامن بأشكال قديمة جديدة. فطالب العلم عندما يريد السفر عليه أن يأتي بتاجر يضمن أن يعود إلى أرض الوطن، والمستثمر يجبر على ضامن من ذوي القوة والبأس حتى يسلم من الطامعين المتربصين، والوظيفة الحكومية تتطلب الضامن التاجر، وملكية كل ما يُشترى تتطلب ضامنًا تاجرًا حتى توثق لدى الحكومة، والرجال المسلحون يخطفون رجالًا من الجنسيات ذات (الجودة العالية) ليضمنوا ما يرونه حقًا لهم، والقائمة تطول... وهكذا أصبح المواطن متهمًا حتى يحضر ضامنه، لهذا نحن نناشد أصحاب السلطة أن يضعوا نصب أعينهم توفير ضامن لكل مواطن على أن يكون هذا الضامن من طراز جديد...

بقي أن نقول إذا كان هناك من ضمن حقه وباطله بضمانات تروق له أو تناسبه... فمن يضمن حق المواطن؟؟؟

الناموس.... عند الإنسان والجاموس

يحكم المجتمعات البشرية وربما (المجتمعات) الحيوانية مجموعة من القيم والعادات، والأخلاقيات، وهي تعمل على تحريك الوجدان ويقظة الضمير بعيدًا عن القوانين التي وضعها البشر لتنظيم العلاقات بينهم بمواد مكتوبة على الورق. وهذه القوانين مطلوبة في عالم البشر وما لا يأتي بالقرآن يأتي بالسلطان. ويعنينا هنا القانون الداخلي غير المكتوب الذي يحكم عالم الإنسان وعالم الحيوان، ففي الغابة تعيش الجواميس على سبيل المثال بمنظومة الأمن الجماعي من خلال اصطفاف القطيع وتكتله في أثناء البحث عن الطعام، والانتقال من منطقة إلى أخرى، وشدني في عالم الحيوان مشهد يمكن وصفه بالأخلاقي أو النبيل، فعندما شاهد جاموس زميله تحت قبضة أسدين وهو يحاول الفكاك منهما، اقترب من أحد الأسود لتخفيف العبء عن (أخيه) دون أن ينفذ بجلده كما يقال، وما كان من أحدهما إلا أن أخذه الطمع لافتراس الجاموس المتهور فخفف ذلك العبء

على الجاموس المقاوم للأسر واستطاعا بشجاعة أن يفلتا من مخالب الأسدين، ولا يفلت من مخلب الأسد إلا ذو حظ عظيم.

نحن البشر كما خلقنا الله وشاء لنا ذلك أعلى مكانة وأرفع درجة من زملائنا الحيوانات في كوكب الأرض، وربما هذا التكبر أو الإحساس بالأفضلية هو المسموح به، وقد أكد الإسلام على هذه المكانة، ولكنه دعا إلى علاقة خاصة مع هذه الحيوانات حسب أنواعها، ومع اعتزازنا بمكانتنا بوصفنا بشرًا، فإن المقياس في علو المكانة في ظننا ليس صكًا مفتوحًا لبني البشر، وإذا استبعدنا اللحم والعظام وجعلنا معيار الأخلاق أو التعامل الداخلي بيننا وبين شركائنا في الأرض فإن ذلك معيار عادل ومعقول، ولا سيما إذا قرنا فعل كل طرف حسب جنسه؛ بمعنى نتناول عالم البشر وعالم صنف من الحيوان كلٌّ في داخل مجموعته، وليس بعلاقات الحيوانات بعضها ببعض فتلك حكاية وحكايات.

ويكفينا من عالم الحيوان قصة (الجاموسين)، وإذا عُدنا للخلفاء الحقيقيين للأرض وعرجنا على التاريخ وما بعده سنجد منهم نماذج

في الوفاء بما يفوق وفاء الكلب، وفي الشجاعة ما هو أبلغ من الأسد، والدهاء ما يُستصغر بعده ذكاء الثعلب، والتضحية ما تستحي منه الحيوانات أجمعين. والتزامًا بالموضوعية وكي لا أتهم بالانحياز إلى جانب قومي من البشر، فإن هناك قلة من صنفنا البشري يسلك مسلكًا يحق للحيوانات بعده أن تفاخر بنفسها عليهم وعلينا، ولكن ما علينا.

وإذا تحدثنا عن المجد البشري فلنا في الأيام القريبة الماضية عشرات العبر، ويكفينا من العقد ما أحاط بالعنق، ففي ساحة من ساحات الحرية المنتشرة هذه الأيام انتشار النار في الهشيم، شاهدنا طبيبًا مصريًا يعالج الجرحى والمرضى، وهو من الصحة والنشاط والشباب ما يثير الإعجاب. وعندما سُئل عن دوره ومكان عمله، عرفنا أنه يعمل جراحًا في إحدى مستشفيات إمارة الشارقة، وعندما سمع بالثورة الشعبية الرائعة في بلده، وشاهد الجرحى، ونداء الاستغاثة، ترك عمله وزوجته وابنته، وركب أقرب طائرة إلى بلده، واتجه إلى مكان واجبه الحقيقي يعالج المحتاجين قبل أن يذهب إلى

زيارة أهله. والموقف لا يحتاج إلى تعليق، ولكنني - وكنتُ المتخوف من مصير الثورة الشبابية المصرية في تلك الأيام العصيبة - أيقنت أنها منتصرة، وأن الأيام العظيمة لا تُعطى إلا لمستحقيها.

وفي مشهد مقابل أو شبه مقابل جرت في مدينة المكلا أحداث دامية، وعندما سكتت أصوات المدافع والرشاشات ذهبنا إلى الطوارئ في مستشفى باشراحيل بحي السلام، وهناك لم نجد طبيبًا ولا صيدليًا ووجدنا عدداً من الجثث لا ندري عندما وصلت إلى المستشفى هل كانت بأرواحها أم فارقتها قبل الوصول؟؟ وفي كلا الحالتين فإن غياب الطاقم الطبي في مثل هذه الظروف يعد جريمة إنسانية. نحن لا نريد نكش الجراح، فإذا غاب الضمير، وتعامى الناس عن إدراك دورهم في مثل هذه الظروف، وصار دافعهم فقط الراتب، أو الخوف على الوظيفة، فقل على مهنة الطب السلام... (لا ننسى أن صديقنا الجاموس قدم لإنقاذ أخيه من موت محقق، وأنه هو الآخر كان معرضًا للموت)، وإذا ما لجأنا إلى لغة الإنصاف وعدم التعميم سنقول: ربما هناك من كان من الأطباء من يعالج

الجرحى في عيادته، أو هناك من منعه الظرف القاهر... إلخ. ولا أريد أن يستدرجني المقال إلى لغة الوعظ التي لا تتناسب مع المقام، ومع هذا نقول إن النفس البشرية كرمها رب العالمين، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا...

في زمن النوازل أو الكوارث لا يُستثنى أحد من القيام بدوره بحسب تخصصه وقدرته على الفعل، والطبيب ما هو إلا فرد ربما في حالة معينة يكون المجتمع بحاجة إليه أكثر من غيره، كحاجة المجتمع لرجال التربية والتعليم والعسكر والعلماء وأصحاب الخبرة في المجتمع، وفي ظرف ما تكون الحاجة إلى بعضهم مضاعفة عن الظروف العادية.

في المناطق الريفية وإلى عهد قريب كانت وسيلة الإنقاذ لقرية ما من حريق أو كارثة هو إطلاق النار بعدد من الطلقات متفق عليها بحيث تميز بين التحذير من تدفق السيول، أو من مصيبة ماثلة، ويهرع الجميع للإنقاذ والمساعدة، فاليوم عندك وغدًا عندي، ولا مكان للمتخاذلين، إنه قانون الضمير الداخلي (الناموس). ولا شك نحن البشر أعلى مكانة وأشرف منزلة من الحيوانات، ويا ليت نكون دائمًا هكذا يا ليت...

(سيبي.. ما سيبي)

«ما نا ما سيبي ولا كلمت حد ألا عساكر على سبة سقل»، ربما سيضرب البعض من غير الحضارمة بهذا النص إلى جذر من جذور اللغات السامية القديمة، أو إلى أسرار الهيروغليفية المبكرة، أو النبطية المتأخرة، ولكن النص ينتمي للعربية العاربة ولا سيما اللهجة الحضرمية الدارجة، ويصنف بأنه من أراجيز أطفالها. و(الترجمة) غير الحرفية لهذا النص للمتكلمين العربية بغير اللهجة الحضرمية يمكن اختصارها في الآتي: يؤكد قائل الأرجوزة على عدم علاقته بما حدث، والتزامه الصمت، ثم يوضح الأمر بحضور مجموعة من الجنود على قضية أطفال لا تستدعي حضورهم.

إذن حضر الجنود وحدث الهرج والمرج لأمر يسير، وهذا ندركه في طفولتنا عند ترديدنا لهذه الأرجوزة، ومع هذا نؤكد من البداية براءتنا وصمتنا لأمر لا يستحق إعلان البراءة وتأكيد الصمت، وأكثرنا يكرر هذه الأرجوزة لاستحسان كلماتها أو لحنها دون أن

يدرك معناها، وفي كل الحالات فإن عهد الطفولة مرفوع عنه القلم.. المصيبة أن الأرجوزة وجدت لها عند البعض أرضًا خصبة ترعرعت بذورها في دواخلهم، وتعمقت معانيها في مواقفهم، وصارت نسقًا ثقافيًا ضمن أنساق تفعل فعلها الضار في المجتمع.

لست من أصحاب نظرية جلد الذات والبكاء على الأطلال.. ولكن في المقابل لا نحمل ثقافة النعامة ولسنا من أهلها. ونرى أنه لكي نُشفى من أمراضنا لا بد أولًا من الاعتراف بالمرض، وتحديد أماكن الألم، ونذكر الأعراض، ثم لا بد لنا من تجرع الدواء.

لا شك أن لهذه الأرجوزة وما شاكلها نصيبًا في خلق حالة السلبية التي نجدها عند قسم من الحضارمة، وأبرز مظاهر هذه الحالة ظهور ما يمكن تسميتها بثقافة (ما سيبي) التي تتحدث عن نفسها عند ذلك الصنف من خلال: حجارة تعوق الطريق (ما سيبي)، مجاري تطفح (ما سيبي)، كلمة حق عند مسؤول (ما سيبي)، مساعدة المحتاجين (ما سيبي)، شهادة لله (ما سيبي)، وطن سيذهب إلى الهاوية (ما سيبي)!!! خَفِ الله (إلا سيب) من؟!

والفئة التي تدخل في خانة (سيبي) في مجتمع سائدة فيه ثقافة (ما سيبي) تكون عادة منبوذة أو مهمشة، وفي بعض المواقف توصف بأنها قليلة الحيلة معدومة الحكمة، وبالدارجة الحضرمية (متعرضة)، (متركزة)، (متنطنطة) وغيرها... وحتى نكون منصفين وغير متشائمين يجب الإشارة إلى صنف من آل (سيبي) نقيض آل (ما سيبي) أصبح لهم ظهور لافت في هذه الآونة وما قبلها، واتخذوا لأنفسهم أشكالًا وأنماطًا شخصية، وفئوية، ومجتمعية، غرست أملًا جديدًا، وتوقعات مستبشرة بأن فطرة الخير التي فطر الله الناس عليها هي التي يجب تسود.

في السنوات القليلة الماضية قدمت رموز من حضرموت نماذج مشرفة للفعل الإيجابي (سيبي) من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر: السيد عبدالله محفوظ الحداد عندما عبّر عن موقفه من بعض المستجدات الوطنية، وتبنيه لبعض قضايا الناس دون الالتفات لمدى رضا الحكام. وقدم المرحوم فيصل بن شملان مثلاً رائعًا عندما استقال من وزارة النفط؛ لأنه رفض دور (ما سيبي)، أو أن يكون

شاهدًا أخرس على فساد يتحدث بطلاقة. ولا بد من الإشارة إلى موقف المناضل حسن أحمد باعوم فالرجل قال كلمته مبكرًا وسط ركام من صمت، ودفع بشجاعة ثمن هذه المواقف، وبهذا دخل دائرة (آل سيبي) باقتدار.

والتقط الناس رمزية تلك المواقف وغيرها.. وبدأ يُثمر وعيًا جمعيًا رافضًا للفساد ومنظومته، والاستجابة لبعض الاعتصامات الرافضة للفوضى والفساد دليل على أن ثقافة (ما سيبي) تفقد مفاصل من مواقعها، وفي هذه الأجواء المشجعة قال الشباب والطلاب كلمتهم التي تعني مما تعني أن دورهم المعتاد في أن يكونوا مجرد أرقام حشدية تظهر محبة الجماهير الغفيرة للحكم والحكام أصبح من الماضي، إنهم بحق مفاجأة الحراك السياسي الذي تشهده محافظات الوطن في هذه الأيام، ووجهوا ضربة موجعة لثقافة (ما سيبي).

وانتشار التجمعات الأهلية في المدن والأحياء الشعبية، وبروز أنشطتها الاجتماعية الطوعية - رغم النواقص والعثرات- يُعد انتصارًا للثقافة الإيجابية المدركة لخطورة المرحلة وحساسيتها. وحقيقة

الأمر أن ما يحدث في حضرموت وغيرها من المناطق من اهتزازات وتوجسات ما هي إلا ارتداد لزلازل عربية ألقت أثقالها، وقال حكامهم مالها، ولكنها انتشرت أخبارها، وحان لشعوبهم التقاط أحجارها ليُرمى بها أشرارها، وتعيد لخطا التاريخ مسارها.

إن مؤشر سلامة أو خراب أي مجتمع من المجتمعات محكوم بمدى كثافة (آل سيبي) و(آل ما سيبي) فيه، وبشكل عام نحن أمام مشهد جديد وحالة مغايرة تستدعيان أكثر من أي وقت مضى رصّ الصفوف، وتوحيد الكلمة، ووضوح الموقف، بعقلية جديدة، وقلوب مفتوحة، وثقافة متسامحة، تقبل كل من قال (سيبي)، وتترك ثقافة (ما سيبي).

جمهورية الجمهوريات الكونفدرالية المتحدة

أمض أخي القارئ في طريقك، لا تشغل نفسك بجهلي الواضح بهذه المصطلحات، العالم مملوء بالمتناقضات والمفارقات.. فهناك جمهوريات ملكية، وملكيات جمهورية، وفدراليات جمهورية، وكونفدراليات ملكية، واتحادات شيطانية، وشيطنات متحدة... إلخ.

ألم أقل لك!؟

ولكن... ما أدعي معرفته في هذا الكوكب وجود جمهوريات في جمهورية واحدة، فروسيا الماركسية كانت تتشكل من اتحاد جمهوريات تسمى (السوفيتية)، وهي جمهوريات لها القليل وعليها الكثير، (والأخوة البروليتارية فوق الجميع)، وعندما بحثتُ في الأطالس الجغرافية على جمهوريات مشابهة لم أجد إلا جماهيرية واحدة عظمى غابت شمسها أخيرًا. كان هذا مبلغ علمي ومنتهى اجتهادي.

وعندما صرتُ مواطنًا في جمهورية جديدة تسمى (الجمهورية اليمنية) سعدتُ بوصفي مواطنًا في جمهورية واحدة بلا جمهوريات،

وبعد مضي سنوات معدودات اكتشفت ما لم يكتشفه الأوائل وهو (وجود جمهوريات في جمهوريتنا).

وقصة الاكتشاف العظيم وقعت في مكان متواضع؛ في إحدى المستوصفات الخاصة في مدينة المكلا التابعة لـلجمهورية اليمنية، وذلك حين وضعني المحصل المالي لهذا المستوصف في غرفة انتظار، ثم حضر أحد طلابي قريب العهد بالتخرج من الثانوية، وصفته الاعتبارية الحالية موظف في مكتب وزارة النفط بالمحافظة، وكنّا في حالة استعداد لإجراء عمليتين جراحيتين، دخل الموظف قائلاً:

من...؟ قلت له: أنا. قال: عليك دفع مبلغ وقدره... حق... ومبلغ وقدره... حق... ومبلغ وقدره... وباطل وقدره حق... اضطرني دفع الحساب المقدم البحث عما تبقى في جيوبي الخلفية، وكان (زميلي) المريض يتفرج لعله في داخل نفسه يتذكر المنظر الذي اضطرني إلى تفتيشه في يوم من الأيام بعد أن تكررت محاولاته للغش عندما كان طالبًا من طلابي!!! المهم دفعت بالتي هي أحسن ما أملكه شرعًا، وما هو قرض حسن..

وجاء دور زميلي المريض فاستخرج ورقة صغيرة لم أستطع قراءتها، ولكن فهمت من حديثهما بأن كلفة العلاج كلها يمكن دفعها لاحقًا بموجب اتفاق بين الجانبين فرع (جمهورية النفط)، والمستوصف. ولأن زميلي من جمهورية تحترمه، وتحميه فقد عُومل معاملة خاصة، فأعطيت له الأولوية في إجراء العملية، وخُيّر في الغرفة التي يريدها، والأيام التي يحب أن يبقى فيها... إلخ. أما جمهورية التربية والتعليم (جمهوريتي) التي لا تملك أي إيرادات سيادية، فإن مواطنيها يجب أن يعاقبوا لأنهم مرضوا، ويجب أن يوبخوا لأنهم يعيشون على فتات الآخرين، ويجب أن ينهروا لأنهم من الحاقدين.

وبعد اندمال جراحي حدثتُ الأصدقاء باكتشافي الرهيب ، وهو وجود جمهوريتين في جمهوريتنا، ولكن الأصدقاء سخروا من طرحي الغريب وقالوا في جمهوريتنا جمهوريات عديدة؛ فهناك جمهورية الكهرباء والمياه، وجمهورية الاتصالات، وجمهورية البنوك، وجمهوريات شركات النفط، وجمهورية الجامعات... إلخ، وهذه تدخل -افتراضًا- في خانة الجمهوريات السعيدة، أما التعيسة

فحدث ولا حرج. وإنعامًا في إظهار جهلي قال صديق: أنت حاسد الرجّال على عملية صغرى في مستوصف صغير ألا تعلم أن في جمهوريته من يذهب للعلاج هو وأهله المقربين في أي مكان في العالم مجانًا، ويستقبل من السفارات استقبال الزعماء، وإن فرص الوظائف والمنح الثمينة تُعطى لأبناء هذه الجمهوريات «وخيركم خيركم لأهله». وقال آخر: إن راتب مراسل في إحدى الجمهوريات السعيدة يساوي أو يزيد على راتبك في الثانوية بشهادتك الجامعية...

بعد ما رأيت ما رأيت وعرفت ما عرفت، وبناءً على المصلحة العليا والشخصية الدنيا قررت الآتي:

١ - إعلان التمرد على جمهورية التربية والتعليم.

٢ - البحث عن جمهورية بديلة (في إطار النظام والدستور).

وبعد نضال سلمي مرير تمكنت بحمد الله ورعايته من فك الارتباط عن جمهورية التربية والتعليم، والانضمام إلى جمهورية الجامعات، وحتى حينه فإنني في هذا المجتمع الغالب على أهله التعاسة لا أدري هل أنا سعيد أو تعيس؟!

صاحب العظمة

ينتشر أصحاب العظمة في تفاصيل حياتنا اليومية، فقد يكون صاحبها حاكمًا كبيرًا، أو موظفًا صغيرًا، أو عبقريًا، أو مجنونًا، وكلٌّ واحد منهم حرٌ في عظمته! فتجد صاحب العظمة هذا - الذي يظن أنه فعلًا صاحبها أو هي صاحبته- لا يغمره شك في أنه أرفع شأنًا من الآخرين، أو أن الآخرين أدنى شأنًا منه، لأنه يرى ما لا يراه المبصرون وغير المبصرين، ويسمع أفضل مما يسمعون، ويفهم أعمق مما يفهمون، لهذا فهو يستحق أكثر مما يستحقون.

هناك مَن تُطلق عليه هذه (الطلقة) بوصفها خطًا مرسومًا، وقدرًا محتومًا ، وكثيرون يطلقونها على أنفسهم ليلًا ونهارًا ، ويستشعرونها سرًا وجهارًا، فهم أولى بأن يأتيهم الناس أذلة مخضعين، لا يتكلمون إلا من أذن لهم (الحُجّاب)، وعليهم أن يصبروا ولو مسهم نصب من عذاب.

يجد بعضهم سعادته في تعذيب خلق الله، فعندما ترتبط مصالحهم ومتابعاتهم مع عظمته، يغيب إن حضر الناس، ويحضر عندما يغيبون،

يصلي في وقت العمل، ويهرب بعد الصلاة ، فهو عظيم عندما يبحث عنه الناس.

وآخرون تجدهم في مواطن العلاج والشفاء، فالمريض عندهم في امتحان عسير وعليه أن يجيب على قدر الأسئلة، حرام عليه أن يستفسر، أو يئن، كلماتهم من ذهب، ولفتاتهم على مضض، لِمَ لا وقد حازوا علم الأولين والآخرين!! ومنهم صنفٌ من علماء الدين نذروا للشيطان صومًا ألا يكلموا إلا مسئولًا ويقولون له قولًا معسولًا.

من حقك أيها المواطن صغيرًا كنت أم كبيرًا أن تكون صاحب العظمة وليس ساحبها، أو تكون صاحب الفخامة، أو صاحب المعالي، أو صاحب العزة، أو أي صاحب أو صاحبة تريدها، ولكن كن فعلًا ما تريده وأهلًا له.

إن العظمة بلا صاحب تتقرب إلى الناس الذين يستحقونها، وتندفع لذلك الحاكم الذي جاء برضا الناس فاستمر بحب الناس، القوي ضعيف عنده إذا كان الحق عليه، والضعيف قوي عنده إذا كان الحق له، يعمل لأجل الناس، ويأكل بالحق من خيرهم، يعرف

الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال، يعود إلى الصواب إن جانبه، قريب من الناس، لا يذل عنده سائل ولا يُهان، بطانته تُصْدِقُه القول، وسائله للعظمة العدل ولو على نفسه وأهل بيته، والصدق مع الله ومع المواطنين، سجيته الحلم والتواضع لخلق الله.

وصاحب العظمة قد يكون موظفًا صغيرًا عافت نفسه (رشوة) هو في حاجة إليها، وصاحبة العظمة امرأة رفضت أن تبيع أثمن ما تملك، وقنعت بالقليل الحلال، ورجل ذابت ذاته في ذوات الآخرين وعمل من أجلهم وعاش على ذلك، وصاحب العظمة مُدرس عشق فصل الدرس ومن يسكنه، وصاحب العظمة كل من أؤتمن على أمر فقام به -قدر استطاعته- خير قيام، وفي مستودع مكارم الأخلاق والمتمسكين بها ستجد نماذج من أصحاب العظمة ما لا يخطر على بال.

وتعظيم سلام لأصحاب العظمة، والعظيم هو السلام..

بشيش على أم اللبن

لم يكن سقوط سلطنتي حضرموت في سنة ١٩٦٧م بالحدث المفاجئ، فقد ظهرت ممهدات كثيرة تنبئ بقرب هذا السقوط، ومن أبرز المؤشرات إلغاء بريطانيا من جانب واحد معاهداتها مع هاتين السلطنتين، ونلحظ ذلك في الرسالة التي بعثها المندوب السامي لعدن ومحميات الجنوب العربي السير (ترفليان) للسلطان غالب بن عوض القعيطي في ٢٨ ديسمبر ١٩٦٦م، قال فيها بعد التمهيد: «إن حكومة صاحبة الجلالة تُعفي من اليوم نفسه سلطان الشحر والمكلا وورثته وخلفائه من جميع التزاماتهم بموجب تلك المعاهدات، وأي معاهدات، أو اتفاقيات، أو وعود أخرى أبرمت ولا زالت موجودة بين حكومة صاحبة الجلالة وصاحب العظمة وورثته وخلفائه وستكون جميعها عندئذ لاغية».

تستحق هذه الرسالة المهمة وقفات تاريخية، وما يعنينا هناأن بريطانيا تخلت عن السلاطين والمشايخ فيما يعرف بـ(الجنوب العربي)؛

لهذا سقطت السلطنة القعيطية بعدما يقارب التسعة أشهر من تلك الرسالة (١٧ سبتمبر ١٩٦٧م) ، وتلتها السلطنة الكثيرية في (٢ أكتوبر) من العام نفسه.

تجدر الإشارة إلى أن سقوط هاتين السلطنتين لا يعني سقوط الدولة في حضرموت، وكان للسلطات الاستعمارية دور لافت في الانتقال (السلس) للسلطة من خلال الإيعاز لقادة جيش البادية وجيش النظام بتسليم السلطة للجبهة القومية!! وبهذا جاءت سلطة جديدة في حضرموت معززة بمؤسسات مدنية وعسكرية قائمة، وكما هو حاصل اليوم كانت الخيارات أمام النخب الوطنية متباينة بعضها يدعو لدمج حضرموت مع الجنوب، وأخرى ترى دمج حضرموت مع الجنوب كخطوة للوحدة مع الجمهورية العربية اليمنية، وكان هذا التيار المهيمن وربما الغالب، وثالث يدعو لاستقلال حضرموت، وكانت فرص هذا التيار ضعيفة؛ لأن هذا الطرح وقتئذ لم يتناغم مع إيقاعات ثورية وحدوية عروبية حالمة.

في عقدي سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي صارت حضرموت محافظة مرقمة ضمن محافظات (جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية) ورغم أنها لم تأخذ حقها في تلك الجمهورية حسب مساحتها الجغرافية،وأهميتها الاقتصادية والثقافية، إلا أنها حافظت على شكل من الإدارة المحلية مثل غيرها من المحافظات الجنوبية، وكان ذلك وضعًا يمكن وصفه بـ (شبه الاتحادي)، ومع هذا خسرت حضرموت جانبًا من قرارها، على أن الأهم من ذلك هو أن تلك المرحلة روضت حضرموت للوصول إلى الوضع الهامشي في مرحلة الجمهورية اليمنية القائمة، إذ صارت رقمًا قصيًا ضمن ثمانية عشر رقمًا أو محافظة. وإذا اشتكت حضرموت في الجمهورية الديمقراطية من ضعف التمثيل أو بالأحرى قوة التأثير في العاصمة عدن، فإنها في عهد الجمهورية اليمنية تذمرت جراء معاناتها مع محافظات الجنوب الأخرى من غياب وزنها في العاصمة صنعاء، وتغييب شخصيتها في عقر دارها، وهذه السياسة المسكوت عنها - بعمد أو غير عمد - جعلت الأغلبية المتعاطفة مع الوحدة الاندماجية السلمية تعيد حساباتها وتغير مواقفها لا سيما بعد تعميدها بالدم في حرب ١٩٩٤م.

واليوم وبعد ما يقارب نصف قرن تعيد الحكاية سيرتها الأولى ولكن معززة بتجربة «واسأل مجرب ولا تسأل طبيب»، فقد جربت حضرموت حكم نفسها، ودخلت في تجربة الحكم مع الجنوب، ثم دخلت في حكم الجمهورية اليمنية (الحالية)، وكانت تجارب فيها من المعاناة أكثر من الاستقرار، ففي هذه اللحظات الحرجة التي تنذر بتغيرات أكيدة – لا يعلم مداها إلا الله – عاد الحضارمة والنخب (الوطنية) و(المثقفة) إلى بحث الخيارات الثلاثة السابقة بحضور مكثف للتاريخ وهواجسه، ولكن في ظروف مغايرة فعندما كانت حضرموت تسعى بعاطفة ضمن الجنوب إلى الوحدة مع الجمهورية العربية اليمنية كانت إمكانياتها تسمح لها بأن تظل مستقلة أو محتفظة بقرارها، واليوم تحاول عن تجربة التخلص من تبعيتها السابقة لكنها لا تمتلك أدنى شروط الفعل الحقيقي.

ولا شك أن هذا الوضع جعل الحضارمة يرتدون إلى ما قبل قيام سلطناتهم وذلك لتحقيق أمنهم الجمعي الداخلي بتشكيل اللجان الشعبية في الأحياء السكنية لحفظ أرواحهم، وممتلكاتهم

الشخصية، ثم أخذت تتوسع الجهود لإقامة مجالس وملتقيات في المدن والقرى والأرياف، وهي خطوات إيجابية تؤكد مرحلة الفراغ الكبير الذي يعانيه الحضارمة ويشعرون به، ومع هذا فإن هذه الخطوات اصطدمت وما تزال تصطدم باجتهادات شخصية مسيسة وغير مسيسة، هدفها التنافس على سلطة وكراسي في الهواء، أو لفهم قاصر وضعيف لطبيعة المرحلة.

أيها الحضارمة لا تنازعوا فتذهب ريحكم. يا حضارمة لن يكون لكم مكان في لعبة السياسة إلا بوحدة موقفكم، وصدق مشاعركم، ونبل مساعيكم. يا حضارمة (بشيش) على أنفسكم من أنفسكم، و(بشيش) على حضرموت من عجلتكم. وقبل أن نكون كما نريد ونحب يجب أولًا البحث عن حضرموت التي تستحق الحضارمة، كما يجب أن نعيد صناعة الحضارمة كي يستحقوا حضرموت.

السلاطين القعيطيون ... عن كثب

بين سيطرة القعيطيين على مدينة المكلا في نوفمبر عام ١٨٨١م، وخروجهم منها في سبتمبر عام ١٩٦٧م مدة من الزمن لا تتجاوز التسعة عقود (ستة وثمانون عامًا)، في هذه المدة القصيرة من عمر التاريخ تشكلت السلطنة القعيطية، وتوسعت تدريجيًا لتشمل معظم مساحة حضرموت، وقد سبق دخولهم لمدينة المكلا خطوات سياسية وعسكرية يمكن عدها بالتمهيدية، لكنها ساعدت في تأسيس كيانهم السياسي بمساندة ثروة العائلة في حيدر أباد بالهند، وبالمؤازرة البريطانية.

بدأ الحكم الرسمي للسلطنة القعيطية بالسلطان عوض بن عمر القعيطي، وانتهى بالسلطان غالب بن عوض بن صالح، وبينهما حسب تسلسل التولية: السلطان غالب بن عوض، وعمر بن عوض، وصالح بن غالب، وعوض بن صالح بن غالب القعيطي.

وإذا كان – القدر التاريخي – قد وضع جيلنا في ضمن رعايا السلطنة القعيطية في السنوات الأخيرة من عهدها ، فإنه – أي هذا القدر – جعل منهم بعد زوالها وفي نظام الحكم الجديد بجناحه

اليساري المتطرف جيلًا للثورة. في تلك المرحلة الثورية خاصم الثوار - مثل معظم الأنظمة الثورية - التاريخ وتوابعه، ووصفوا ما قبلهم بالعهد البغيض، والبائد، وصنفوا ساسته بركائز الاستعمار، ورموز التخلف والرجعية، ولكن...

في مدينة المكلا ظلت شواهد تحكي جانبًا من قصة التاريخ فهذا قصر السلاطين (القعطة) أو قصر (المعين) الذي زاحمته تسمية ثورية (قصر ١٤ أكتوبر)، ظل راسخًا رسوخ المدينة الأصيلة في تاريخها، فمن خلال ذهابنا إلى مدارسنا التي شيدت في عهد السلاطين القعيطيين، أو عند عبورنا بمحاذاة المستشفى الذي بُني في ذلك العهد، أو بجلوسنا في بحر (المشراف) المخصص للنساء منذ عهد السلاطين، لابد من مشاهدة قصر المعين حتى صار من ضمن تفاصيل حياتنا اليومية، بل امتدت علاقتنا به إلى داخل أسواره وزواياه، وأحيانًا التسلل إلى فنائه وبعض غرفه في حركة من البراءة لا خصومة لها مع التاريخ، ولا مع أهله لكنها كانت تؤسس لتساؤلات جنينية دفينة قابلة للتوسع والبروز.

وظلت التساؤلات في مكمنها! ولم تستطع المدرسة تحفيزها أو إرواء عطشها، وحتى في الجامعة لا سيما في قسم التاريخ بكلية العلوم والآداب والتربية بمدينة المكلا غاب السلاطين الكثيريون والقعيطيون من مفردات المناهج الدراسية إلا اللمم، وحل محلهم شخصيات تاريخية بعيدة عن حضرموت، بل صارت لهم السطوة في قاعات الدرس التاريخي، ولا شك أن وراء هذا الطمس قصة معروفة، ومع هذا وللأمانة العلمية فإن دراستنا الجامعية الأولى نبشت في التربة الجامدة، ودفعت الفضول التاريخي لمعرفة المزيد عن المغضوب عليهم من السلاطين والرجعيين.

في عام ١٩٩٦م زار السلطان غالب بن عوض القعيطي حضرموت، وقوبل في مدنها وأريافها بحفاوة لافتة، وجاءت الزيارة بعد سنتين من سقوط مدينة المكلا بيد ما سمي بـ(قوات الشرعية). كانت الأوضاع وقتئذ كما هي اليوم تمضي من سيئ إلى أسوأ، كان برنامج الفيد في عنفوانه، وفي تأصيله (المنظم) لثقافة الفوضى، أما برنامج السلطان فقد كان حافلًا، من ذلك زيارته

لبيت نجل شاعر السلطنة القعيطية الشيخ عبدالله الناخبي القريب من بيتنا، وبعد انتهاء واجب الضيافة أدت (حافتنا) واجب التحية من خلال احتشاد الناس، وارتفاع أصوات الزغاريد المعبرة عن الفرح من بعض نسوة الحافة. كان هناك من يردد : نريد كهرباء يا سلطان؟؟ في هذه المهرجان العفوي لم أتشرف بمشاهدة ضيف حافتنا، وتأجل اللقاء إلى مكان له الكثير من الدلالات!

في تلك المرحلة، ووسط هذه الأجواء كُنّا في مرحلة الإعداد لرسالة الماجستير عن تاريخ حضرموت بين الحربين العالميتين، في معظم الأوقات تجدنا جالسين في المكتبة السلطانية، التي أسسها السلاطين القعيطيون، الملاصقة بالجامع الذي عمره السلاطين القعيطيون، وبالقرب من أنقاض سدة المكلا قبل الأخيرة، التي بناها القعيطيون، وعلى مسافة غير بعيدة من الميناء (الفرضة) الذي شيده السلاطين القعيطيون. في تلك المكتبة كانت المصادر والمراجع تعج بالأخبار التاريخية، وتزخر بالأحداث والصراعات، كُنّا نشعر أحيانًا بقربنا من المتنافسين، ونحسب حالنا في مكان يسمح لنا برأب الصدع وتقريب وجهات النظر، ثم ننهمك في وسط هذه المعمعة إلى أن يرفع أذان الصلاة.

في المسجد غالبًا ما يكون حظنا في الصفوف الخلفية، ثوان معدودات ويشرع الإمام في تكبيرة بداية الصلاة، وبينما السكينة تسود أرجاء المسجد فجأة دخل السلطان غالب بن عوض واثنان من المرافقين له من البوابة الرئيسة للمسجد، وبتلقائية لا أستطيع وصفها، وبعد همس لا يكاد يسمع انفطر المسجد إلى قسمين فإذا بالسلطان - رغم إصراره على البقاء في موضعه - ينزل عند رغبة الناس ويتقدم بحياء واضح إلى الصف الأول خلف الإمام مباشرة! في تلك اللحظات الفريدة، وبزخم الأحداث التاريخية المتزاحمة في الدماغ خُيّل لي بأن التاريخ بُعِث بلحمه وشحمه ودمه.

لا نريد التحدث عن مشاعر السلطان فربما دوَّنها أو قالها للمقربين منه، ولكن إذا سمحنا لأنفسنا بالتخمين فإن المشاعر لا ريب ستكون فياضة، ولها وقعها المريح في أعماقه، وستزيده محبة لهؤلاء الناس الطيبين الذين لا توجد لديهم خصومة تاريخية سافرة مع آبائه، كما لا نريد التعليق على رمزية زيارة السلطان في تلك المرحلة العصيبة من تاريخ حضرموت، ولا على ما أظهره له الناس من تقدير وحفاوة، وهي نعمة كبيرة تهون عندها مكاسب الدنيا الزائلة.

إن السلاطين القعيطيين وسلطنتهم في ذمة التاريخ، ومن حق المؤرخين الحكم لهم أو عليهم بحسب اجتهاداتهم العلمية، ربما ينظر البعض بألم إلى حادثة القصر الشهيرة (١٩٥٠م) التي سقط فيها عدد من الشهداء في ساحة القصر القعيطي ويعدونها من صفحاتهم السوداء، ومع تأكيدنا على ذلك فإن حادثة القصر الأليمة كانت في إحدى وجوهها مواجهة مباشرة بين المتظاهرين الغاضبين وهيبة كيان السلطنة، وهذا لا يعني تبرير فعل القتل، وعلى العموم لا يتسع المجال هنا للمزيد، ولكن من المهم وضع التساؤلات لأصحاب الحكم اللاحق للسلاطين من قبيل: كم قتل الثوار من الثوار؟ وكم من الناس قتلهم الحكام قهرًا وغدرًا؟

غادر السلطان غالب المكلا على عجل، وعُدنا إلى مكتبة السلاطين القعيطيين لا نحمل اللعنات على أحد، نريد فقط معرفة الحقيقة أو ما قرب إليها من قول أو عمل. ربما تهيأت لنا نحن طلبة التاريخ فرصة الاطلاع على قدر يسير من المعلومات التاريخية ربما ولكن من المؤكد أننا ما نزال بحاجة إلى أن نفهم الكثير والكثير.

بو قمر... الله الله في الأمانة

إذا وصفنا بعض مدن حضرموت ومناطقها بكلمات انطباعية يمكن وصف (تريم) بالمحافظة، و(القطن) بالممانعة، و(حريضة) بالساكنة، و(دوعن) بالغامضة، و(غيل باوزير) باليَقِظَة، و(المكلا) بالمتجددة، ومدينة (الشحر) بالذكية. ولا ريب أن مكانة المدن في قلوب أهلها أكبر من أن تستوعبها كلمات عابرة في سطور سريعة، ومن اللائق ترك كل عاشق ومدينته يقول فيها ما يشاء.

قدَّمت الشحرُ لحضرموتَ رموزًا في الشعر والأدب والسياسة والإدارة والتاريخ. ويكفي الشحر فخرًا من الشعراء حسين أبوبكر المحضار، ومن الكتاب والمؤرخين محمد عبدالقادر بامطرف، وعبدالرحمن الملاحي، وعبدالله صالح حداد، ومن أهل الفن سعيد عبدالنعيم، ومن أهل السياسة وزير السلطنة القعيطية السيد أحمد محمد العطاس، والوزير الدكتور عبدالخير النوبان، والشيخ القاضي محفوظ المصلي، ومن أهل الرياضة نكتفي باللاعب أيوب.

بيد أن الشحر الذكية زاخرة برموز كثيرة لا يعلمهم إلا الساكنون فيها والمتيمون بها، أسهمت هذه الرموزُ ببصماتها الطيبة في رسم ملامح مدينة الشحر الظريفة، من هذه الرموز الأصيلة صاحبنا (بو قمر) -رحمه الله- الذي لم يكن لي شرف مشاهدته لكنني سمعت نتفًا من قصته من أصدقاء وزملاء شاهدوه عين اليقين.

(بو قمر) رجل شحري صاحب مطعم يقع في وسط المدينة، ارتبطت به بعض الغرائب منها توقيته بيع وجبة العشاء المكونة من الأرز والسمك بعد منتصف الليل؛ وهو توقيت لا يتناسب مع طبيعة المدينة الهادئة التي يأوي أكثر أهلها إلى النوم قبل الساعة العاشرة مساء. التساؤل المشروع (بو قمر) يبيع لمن؟؟؟ والأغرب أن (بو قمر) بعد أن يفرغ من إعداد الطعام ينام نومًا عميقًا داخل مطعمه تاركًا الزبائن لأمانتهم في دفع ثمن ما يلتهمونه!!

لحظة... يا (بو قمر) من أنت؟ ومن هم زبائنك؟ ولماذا وجبة آخر الليل؟ ولماذا تترك مالك لمن هب ودب؟ وهل تستفيد فعلًا؟ هل تعمدت فتح مطعمك لعابري السبيل؟ لماذا افترضت في الجميع

الأمانة؟ بعض الإجابة نجدها عند أهل الشحر نيابة عن (بو قمر) بما تيسر لهم من معلومات، قالوا: زبائن المطعم هم أهل الشحر المعتادون السمرَ الحلالَ في جماعات، وذلك قبل أن يغزو التلفزيون البيوت، ومن هؤلاء الزبائن بعضُ أصحاب اللهو المغمس بالشراب الحرام، كما أن هناك عابري السبيل.

مطعم (بو قمر) بذلك التوقيت يجعل الشحر والرز والسمك ثلاثية تجدها في معظم ساعات اليوم، وإذا افترضنا الأمانة في جماعات السمر البريء وقيامهم بدفع قيمة ما يأكلونه! ماذا إذن عن عابري السبيل؟ وماذا أيضًا عن الزبائن السكارى؟ ما الذي يدفعهم إلى دفع قيمة ما يلتهمون؟ فلا رقيب بينهم إلا ضمائرهم. ولا سيما أن شخير عمنا (بو قمر) يعلن مطلق الأمان في المكان.

وإذا افترضنا أن بعض الزبائن لا يدفعون الحساب وأن (بو قمر) ربما حسب حسابهم، فالأدهى أن المتروك في ذمة رواد المطعم ليست وجبة العشاء حسب، ولكن ما يدفعه الزبائن الأمناء من نقود. فلماذا يترك الناس نقود (بو قمر)وشأنها؟

لقد عاش (بو قمر) مرتاح البال ونام نوم القانعين قرير العين... ثم مات راضي النفس. بيد أنه كما ترك ماله لأمانة عابري السبيل، وأصحاب الليل، تركنا نلهث وراء تساؤلاتنا، واكتفى بإشارات يسيرة تحض على الأمانة في زمن سادت فيه الأمانة، وتغنت الشحر وأهلها بالأمانة، ورددت كلمات شاعرها المحضار:

شاءت الأقـدار يا زيـن الطبـاع في فؤادي تطبعـك
فاذكر الماضي وحسك من ضياع قلب ما قد ضيعك
قد حفظ عهدك وصانه
الله الله في الأمانة يوم أمنتك بقلبي
الله الله في الأمانة.

جدة... قبل البداية

جدة... عنوانٌ لمدينةٍ مرسومةٍ في الخيال... هناك حيث آلاف الحكايات... جدة السفن الشراعية، والمراكب البخارية... جدة الحجاج والمهاجرين... جدة البحار والأمواج العالية، والتيارات العاتية... جدة بشارة الحضور، وشفاء الصدور... جدة مشاريع أحلام في سواعد الرجال، وفي قلوب العذارى... من جوفها سينطلق الفارس في ليلة مقمرة، بثوبه الأبيض، على سفينته البيضاء، وشراعها الأبيض، سنراها من بعيد. لن نخاف سيحضرون، وسوف نردد أهازيج السفر.

وبداية البداية تبدأ من بحر مدينة المكلا الجميلة، هنا حيث الناس المسالمون، المستندون إلى جبل الشاعر سعيد باحريز، والمستريحون في كهوف الشاعر حسين المحضار، والساكنون في بلاد الشاعر عمر أبوبكر العيدروس، والباحثون عن معكرات جول ديس الشاعر صالح المفلحي.

وتبدأ البداية... يصعد على السفن، من تأكد عزمه، ورمى همه، ويبقى المترددون في المدينة، ومن أبى. لا يحمل المسافرون شيئًا من تعقيدات السفر في هذا الزمان، جدة لا تطلب إلا ما هو معقول ومقبول، أما المسافرون ففي أمل وذهول... منهم من يسافر تلبية نداء الحج ليعمر قلبه بالإيمان استعدادًا لساعة لا أمان فيها لمن اختلى قلبه من الإيمان، وأكثرهم يبحثون عن رزق وأمان، ولكن السفينة تمضي في طريق خبرته من سالف الأزمان.

ومن جده تبدأ بداية وبدايات، فهي كانت وستبقى بوابة الحرمين الشريفين، وملتقى المسلمين إلى حيث تهفو قلوبهم. أما المهاجرون فيذهبون وشأنهم، ومن لم يجد القريب والصديق فهناك البيوت العامرة بالمروءة والشهامة تستقبل الغريب في أرض الغربة حتى يبلغ مأمنه، ومستقره، ليبدأ حكايته الجديدة، وفي يوم ما سيروي كيف بدأت؟ وكيف بدأ ؟؟؟.

وهكذا ارتبطت جدة في مخيلتنا بأخبار البحر، وأسماء السفن، ومراكب السفر، وإعلانات أوقات السفر، وبالرجال الناجحين،

والثروات الكبيرة، والهدايا الغريبة، والحلاوة الطحينية... إلخ، وبجلب المسافرين العائدين ما ندر في الوطن من متاع الدنيا ويطغى مشهد الفرح... ولا مكان هنا لتفاصيل كيف جاء هذا المتاع؟ وبأي جهد بذل؟ وعلى حساب ماذا جمع؟ وفي أعراس مدينة المكلا يكسب العريس (الجداوي) ، وتتباهى العروسة في معركة تنافس غير عادلة، ثم يزداد أعداد الحالمين...

عندما فشلنا في إحضار (كرة قدم) لفريق حافتنا تطوع أحدنا وقال إنه سيطلب من أخيه المسافر في جدة إحضار هذه الكرة، وتطلبت تلك المبادرة الطيبة كتابةَ رسالة في بيت الصديق المتطوع، ونجحنا بما نعرف من كتابة باللغة العربية في تضمين مطلبنا، وتوصيل مقصدنا، ولم تخيّب جدة رجاءنا فالرسالة ذهبت في مركب جدة، وعادت في مركب جدة على هيئة كرة (جداوية)، أذابت بفرح غامر عصريات عديدة في ساحات المكلا وملاعبها.

وسمعنا أن جدة ضمت أهلنا، وأنهم ذابوا فيها، وذابت فيهم، قدمت لهم الكثير وما بخلوا عليها، ولا تزال الحكايات تتقدم قوافل...

لم يتسنَّ لنا حتى حينه زيارة جدة... بشرى مكة المكرمة، وأمل المدينة المنورة، ها نحن على مشارف الخمسين من العمر. نصف قرن وجدة تلاحقني من بعيد وألاحقها، هي على مرمى حجر، كلما هممت بها، وهمت بي، تغلّقت الأبواب، وتلاشت البدايات. ولكن وعدًا يا جدة لن يمنع لقاءنا أعماق البحار، ومتاهات القفار، وغضب الأمطار. مدي يدك من بعيد كما هي يدي ممدودة، افرشي النمارق يا جدة! ففي المكلا بدأت البداية، لتتعانق في جدة البداية مع البداية...

الشيخ بن عبيّد... زمام المبادرة

كلمح البصر تمر الأيام، وفي عجلة من حالها تتوارى السنين، قليلون يدركون أسرار هذه الحركة، فلا تفاجئهم عثرات الطريق، ولا تفجعهم تقلبات الدهر لهذا تجدهم في سباق مع أنفسهم لتخفيف آلام الناس قدر استطاعتهم، ويسعون في الرفق بالحيوان، يدفعهم إلى ذلك فهم عميق لمعنى الدين الذي هو حُسن المعاملة المعمدة بالنوايا المخلصة.

في قلب سوق المكلا وبجوار المدخل الشرقيّ لمسجد السلطان عمر بن عوض القعيطي يقع معمل (الكعك) لصاحبه الشيخ محمد بن عبيّد دعكيك، وبالقرب منه يقع صالون (ناصر عزيم) للحلاقة المحاذي للشارع الموصل في نهايته عند الصعود يسارًا إلى المكتبة السلطانية، ويمينًا إلى بداية سوق النساء، وبينهما ومضة من ألف ليلة وليلة بنكهة التاريخ والحناء والمر واللبان البخور، فمن ألقى البصر وهو شهيد سيجد بقايا من سوق بغدادي عباسي، وزوايا من

قاهرة المعز، وأشياء من سواعي مقديشو الشراعية، وروائع من دمشق الخليفة عمر بن عبدالعزيز. ومن أسعده الحظ ستحفه بركة من بركات الصالحين، وستغمره تحايا السلطان صالح القعيطي حيث معقل وصيته.

لا يحمل شيخنا بن عبيّد من عنوان التجارة إلا اسمها ليس ضعفًا في الهمة، ولا قلة في البركة إنما هو عنوان للقناعة بأجمل المعاني. يبدأ (بن عبيّد) في صنع بضاعته مصدر رزقه في معمله الصغير، يكاد يكون سقف إنتاجه واحدًا لا يتجاوزه وإن ازدادت طلبات الزبائن. لابن عبيد عشرات الأمور التطوعية الأهم التي تشغله ويفرّغ نفسه لأجلها. والمرحلة الأخيرة التي يروم إليها في لعبة الكسب الحلال من مهنته هي مرحلة الستر، لهذا دائمًا بن عبيّد في خانة كبار الرابحين.

من هذا المكان النابض بالحركة التجارية الرئيسة في مدينة المكلا حيث تعقد الصفقات التجارية، وتتزاحم الأقدام، وتتعالى أصوات الحمّالين، ويتصبب عرقهم، وما يدور في السوق من تقلبات، وما

يكتظ به من بضائع، وما يسفك فيه من دنانير في هذه المعمعة الدنيوية المكثفة يغادر بن عبيّد معمله لينتشر في أزقة المكلا وحواريها في برنامج من الحركة مكتوب في قلبه الطيب حيث تنتظره بشغف أغنام المدينة. يستعد بن عبيّد بأدواته التقليدية من مقصات وقواطع حديدية يستخدمها لتقليم أظفار الماشية عندما يعيق نموها حركتها الطبيعية، ويخفف شعر البعض منها كي تنعم بصيف أقل سخونة. و(صديق) الماشية هنا لا يستأذن أربابها بل يدخل في علاقة مباشرة معها لمن وجد في ضالتها استعدادًا لأهدافه النبيلة، ثم ينطلق إلى مكان جديد، ولكن بن عبيّد الذي يسعى لتخفيف الأذى عن الحيوان لا يسلم أحيانًا من أذى الإنسان لا سيما عندما يهم بإمساك شاة من الشياه في حضور أو مشاهدة صاحبتها وقبل أن تتفهم النساء الغاضبات ما يقوم به تصيبه كلمات من رفض واحتجاج وشك.

شيخنا الفاضل مؤسسة خيرية تطوعية متنقلة، وهو رجل المهام الصعبة أو الاستثنائية، يشاهده الناس في بعضها بخاصة عندما يسهم بنظافة المسجد في كل أرجائه، ثم إنه الأقرب لذوي الاحتياجات

الخاصة من كبار السن الذين غاب عنهم ذووهم لسبب ما فيتقدم الصفوف أستاذنا الجليل في برنامج للطهارة والغسل لهؤلاء بلا أذى أو تأفف، وبدون استعراض.

مؤسسة بن عبيّد الخيرية قريبة أيضًا من مجانين المدينة، وله في ذلك مواقف ومساعٍ مشهودة. يعامل كل حالة بحسب عالمها الخاص، فبينما يسعد البعض منهم بملبس أو بمأكل من تلك المؤسسة. هناك من يحتاج إلى معاملة خاصة وتصدٍّ شجاع فبالقرب من معمله يصاب أحد التجار بنوبة (معتادة) من الجنون تجعله ينقض على من عثَر حظه من المارة، ويتجنب الناس المريض لكن بن عبيّد لا يستطيع السكوت أو الانزواء، في اللحظة المناسبة تجده وجهًا لوجه أمام المريض، وبرفق يتمكن من السيطرة على الوضع ويتفرق الناس وتعود المياه إلى مجاريها ويرجع بن عبيّد إلى معمله.

لا تنحصر علاقة شيخنا مع دابة الأرض الأليفة عند تهذيب أطرافها وقص الزائد من شعورها، بل اجتهد لأن تسعى إليه في محل رزقه حيث كان يوفر المياه في أوانٍ خاصة ليروي عطشها، وفي

ذات المكان تجده منكبًا على تجليد المصاحف ويعتني بها (تطوعًا) قبل إعادتها للمساجد التي أخذها منها، ولم يكن بن عبيّد أميًا بل تحصل على حظ من التعليم التقليدي مكّنه من إدارة حلقات الدرس للأطفال في مسجد السلطان عمر القعيطي. كما أن الكثير من اللوائح المنتشرة في مساجد المكلا التي تذكّر على تلاوة نية الاعتكاف في المسجد، أو تحث على رص الصفوف هي من خط يده إذ كان -رحمه الله - معروفًا بحسن الخط.

وقد يبدو من العرض السابق أن شيخنا يعيش بعيدًا عن واقعه أو له عالمه الخاص، ولكن القريبين منه يتحدثون عن مشاركة سياسية للشيخ، فمن حرّكته معاناة حيوان لا بد أن تحركه قضايا أمّته. كان العصر الناصري هو الطاغي على قلوب العرب وكان عبدالناصر الزعيم والأمل، ولهذا كان بن عبيّد مع الصفوف المتقدمة التي تتظاهر تأييدًا للمساعي العربية نحو تحرير الأرض والعزة الكرامة، وعندما مات الزعيم شيع الجنازة مع الآلاف من سكان مدينة المكلا، ولعله بكى حزنًا على الزعيم كما بكاه الملايين.

بعد عهد ما بعد السلاطين في حضرموت مضى بن عبيّد في برنامجه غير حافل بما يعتمل وما يمور، وفي أيام مبكرة لذلك العهد فرضت أشياء وغيبت أخرى من ذلك الاحتفال بمولد الرسول ﷺ ، فبعد أن كانت مظاهر الاحتفال أكثر اتساعًا خففت إلى احتفالات في المساجد، لكن معقل بن عبيّد لم يعترف بتحفظات الحكام (الشباب)، وكان في مكمنه يظهر شيئًا من ذلك الاحتفاء بهذه المناسبة ليس تحديًا للسلطة ولكن بروح كامنة في داخله تدفعه لأن يفعل ما يراه لائقًا ومناسبًا، ويبدو أن الحكام على ما اشتهر عنهم من العجلة في التصرف أدركوا شيئًا من دلالات ما يفعله فتركوه وشأنه.

لكن بن عبيّد ظل يسابق الزمان مدركًا أنه كالسيف إذا لم يُقطع قَطع، لهذا لم يترك أحدًا وشأنه فعندما يرقد أحد أقربائه في المستشفى كان بن عبيّد مرافقًا نموذجيًا للمريض، ثم وجد في المستشفى وفي عنبر قريبه فرصة عظيمة لممارسة هوايته الأثيرة في مساعدة الآخرين، فإذا به جندي يقظ ملب بالتي هي أحسن حاجة المرضى المرقدين ومتطلباتهم جنبًا إلى جنب مع ذويهم.

لا أدري متى توفي العم محمد بن عبيّد، ولم أسع إلى ذلك سبيلًا رغم أن لنا بعض علاقة مهنية مع حوادث الزمان. فهل هذا الإغفال لأن بن عبيد يمثل حالة خاصة في عصره ومدينته؟ أو أنه حالة إنسانية يصعب حصرها بمكان وزمان؟ سيقول أهل اللغة إن (عبيّد) تصغير لكلمة عبد، وهو اللقب الذي طغى على اسمه، نظن أن شيخنا عاش كبيرًا في داخله، وتعاظم على صغائر الحياة وسفاسفها، ووضع نفسه عمدًا وبتواضع حيث يكون الكبار، لم يعبأ بأهل اللغة وتركهم يلهثون وراء قواميسهم.

لكن كم قيمة خُلقية حملها الرجل، وكم من درس تركه للناس، وكم من دلالة أضاء بها سيرته وعطرها، وكم من إشارة تركها تستحق الذكر الحسن...

الله يرحمك يا بن عبيّد، الله يرحمك

الحكّاؤون المكلاويون

يحكى أنه في مدينة هندية قديمة قرر ملك من ملوكها ويدعى (شهريار) الزواج كل ليلة بفتاة عذراء، وفي صباح اليوم التالي يتم قتلها بالسيف، وفي ليلة من تلك الليالي المرعبة دخلت العروس (شهرزاد) في موكب أشبه بالجنائزي منه بالفرائحي.... في الصباح الباكر كان السيّاف (مسرور) في انتظار الإذن وتنفيذ الأمر المعتاد لكن شيئًا من ذلك لم يحدث فقد قرر الملك تأجيل نفاذ القرار المعتاد دون أن يحدد الأسباب ..... كانت شهرزاد تحكي في كل ليلة حكاية جديدة للملك، ولا تسكت عن الكلام المباح إلا بعد أن تلوح بشائر الصباح ليتجدد الموعد في ليلة جديدة تحكي ما تبقى من الليلة السابقة ثم تترك في كل ليلة بقايا ينتظرها الملك بشغف، وهكذا إلى أن يئس مسرور عن الحضور. فهل انتصرت الحكاية على الموت؟، أو هل تغلبت الفكرة السليمة على التصرف الوحشي؟ أو هل هو دهاء النساء وكيدهن العظيم.؟ ومهما كانت الإجابات فإن

شهرزاد وحكاياتها كانت ترمز في تلك الليالي المخيفة إلى انتصار إرادة الحياة، أو ربما كانت حكاياتها هي الحياة ذاتها.

وسار الركبان بحكايات شهرزاد، ووصلت في رحلتها المفتوحة إلى مدينة المكلا التي كانت هي الأخرى تبحث عن الفرح كي تعيش أو لعلها كانت تعيش من أجل أن تفرح، والثابت كما يقال: إنها مدينة تعلقت بالحياة وأرادت أن يحملها الأمل على كفوف الراحة إلى حلمها البعيد بلا زوابع لهذا شغفت بالحكاية حبا حد العشق، وفتحت الأبواب وهيأت كل السبل حتى يأتي (شهريارها) ليراودها بالحكاية عن نفسه في عصريات أيامها وفي مستهل لياليها.

في منتصف أربعينيات القرن الماضي انتهت الحرب العالمية الثانية وتحرر الناس من أهوالها وكانت مدينة المكلا قد فرغت من دفن ضحايا هذه الحرب غير المباشرين، وعاد الصيادون إلى قواربهم التقليدية يبحثون في ساعات نهارهم عن مصدر رزقهم، واستأنف الميناء حركته وانهمك الحمّالون بإنزال البضائع من السفن الشراعية والمراكب إلى سطح الميناء، ومنه إلى مستودعات التجار القريبة ،

وزودت محلات البلح (التمر) المعجون بزيت السمسم (سليط المعصرة) العمال العضليين بالغذاء الصحي المناسب للجهود التي يبذلونها، وبينما الباعة المتجولون يجوبون شوارع المدينة الرئيسة بحثا عن الزبائن لشراء بضائعهم البسيطة كان الحدادون يتحالفون مع أفرانهم الصغيرة لتطويع قطع الحديد وتحويلها إلى مشغولات تنفع الناس.

وهكذا عاشت المدينة نصف يومها وهي في حركة دؤوبة استحقت بعدها الراحة لساعة من نهار أو يزيد قبل أن تستعد وأهلها لصلاة العصر.

وفي المدة بين صلاة الظهر إلى دخول وقت صلاة العشاء يكون المكلاويون في فسحة من أمرهم فبينما يفضل البعض منهم نوم القيلولة يفضل آخرون الجلوس على المقاهي الشعبية لاحتساء الشاهي والثرثرة أو الجلوس بالقرب من شاطئ البحر حيث الهواء العليل، وفي خضم هذا التنوع في حركة المكلاويين، ولتزجية الوقت حرصت (أمة) منهم على الجلوس بالقرب من الرواة المتطوعين بسرد قصص

المتخيل الشعبي، ومغامرات أبطال التاريخ ، ويسمى الفرد منهم بـــ الراوي وهؤلاء يعرضون بضاعتهم شفاهة، وأحياناً بالاستعانة بالكتب الصفراء فيتحلق حولهم المريدون المتشوقون لمتابعة الحكايات وأسرارها، وربما كانوا في جلساتهم تلك التي يجلسونها يبحثون وهم البسطاء الكادحون عن ذواتهم فيها، وعن أمانيهم التي يرحلون ببعضها إلى فضاءات أحلامهم .

وقد تقاسم (الحُكاةُ) ساعات فسحة المكلاويين وأوقات فراغهم فبينما يفضل البعض منهم سرد حكايته بعد صلاة الظهر إلى صلاة العصر أو بعد صلاة العصر إلى ساعة السحر تجد آخر يستحسن البوح بالحكاية بين العشاءين(المغرب والعشاء) وهناك من يستعين بالليل ويجد في ساعاته سبحا طويلا، وهذا التنوع الزمني جعل الحكاية في المكلا مستقرة، وجعل من المكلا حكاية مستمرة.

ويعد الشيخ (عبد أحمد عبد الرزاق) الراوي الأكثر شهرة في حي البلاد بالمكلا وهو شخصية مكلاوية اجتماعية بامتياز. عمل بمهنة الحلاقة التي تعني وقتئذ تصفير شعر الرأس، ولا مجال غير

ذلك لأن العرف الشعبي كان يرى في تهذيب الرجل لشعر رأسه ضرباً من الزينة التي لا تجوز إلا للنساء، وعموما كانت حالة (شهريارنا) الاقتصادية ميسورة فكان يمتلك قوارب يؤجرها للصيادين، وهذا الوضع شبه المريح ساعده ليجد متسعاً من الوقت ليحكي حكاياته في مكان قريب من سوق الحدادين القديم خلف مسجد الروضة وغير بعيد عن مقبرة يعقوب وساحة الهاشمية. وتبدأ الحكايات عادة بعد زهاء ساعة من أداء صلاة الظهر عندما كانت العادة عند بعض الأسر المكلاوية تناول وجبة الغداء قبل صلاة الظهر، وعلى أية حال فإن توقيت جلوس الحكاؤون كان في الأصل يتغير ضمن إيقاع حركة المدينة وما يشوبها من تحولات.

يتميز عبد أحمد بأسلوبه الأخاذ والسلس، مما مكّنه من شد مستمعيه إلى عوالم حكاياته وشخصياتها المتناقضة، وتصرفاتها المريبة، ومواقفها المثيرة لكنه يحرص - كشهرزاد - على الاحتفاظ دائما بنهاياته إلى يوم جديد، لتتابع بدايات الراوي عبد أحمد مع نهاياته، ويبقى المتحلقون حوله في انتظار مفاجآته المتجددة.

ويتبدل وقت الحكاية عند الشيخ عبد أحمد مقارنة بغيره من (الرواة) لاعتبارات كثيرة لعل بعضها يتعلق بالطقس وسخونته، والرطوبة ودرجاتها العالية أو بدورة الليالي المقمرة. وعلى أية حال فإن عبد أحمد لم يكن بعيدا عن حياة المكلاويين ومناسباتهم فهو يمتلك صوتاً جميلاً لا يبخل به في حفلات الفرح الجماعي المكلاوي. كما اختط لنفسه عادة لايزال يتذكرها القاطنون بالقرب من (مسجد النور) شمال ساحة الهاشمية ففي كل ليلة جمعة من شهر رمضان وبعد صلاة القيام يناجي عبد أحمد ربه بأذكار يرددها بلحن شجي ومؤثر وبصوت يهز وجدان المستمعين فتتساقط دموع المؤمنين في الرجاء من الله أن يحقق المراد في تلك الليالي الروحانية من شهر رمضان المبارك.

وهذا الحضور الاجتماعي للشيخ عبد أحمد ومساهمته في خلق ثقافة الحكاية عند المكلاويين كانت البوابة لأن يرشح للتمثيل في أول فيلم أنتج في الجزيرة العربية بإشراف السلطان صالح بن غالب القعيطي بعنوان :(عبث المشيب) ومن علاقته بالمسجد وشخصيته المقبولة اجتماعياً جاء الرجاء فيه بمعالجة بعض الأمراض بالقرآن

الكريم وبخاصة آلام المطاحن، لكن مهما صال أو جال لابد أن يعود لجمهوره الشغوف بحكاياته وخفة روحه.

ولمن لا يسعفه الحظ والوقت في متابعة حكايات عبد أحمد يجد في المدينة خيارات متعددة إذ ما عليه إلا أن يتجه إلى ما يعرف في المكلا بالسقيفة في حي (الحارة) المجاورة لحي البلاد، وتقع السقيفة إلى الجنوب من مسجد (باحليوه) وهي عبارة عن بناء كبير معكوف الشكل يشبه سواري المساجد. في أعلاه تتشابك البيوت المطلة على البحر وفي الأسفل متسع من الطريق للراغبين في ملامسة الشاطئ .

في هذا المكان المعانق لهدير الأمواج، وفي فترة ما بين العشاءين يجلس الشيخ (عبدالله باحيمد) يروي حكايات الأبطال ومغامرات العشاق ويستعين بالكتب التقليدية التي تروي صولات عنترة بن شداد، والزير سالم، وأبو زيد الهلالي، وقد احتلت حكايات عنترة مكان الصدارة في ليالي (الشهريار) باحيمد، وحقيقة الأمر فإن عشق المكلاويين لقصص عنترة العبسي لا تنتهي مهما كررها الرواة، ولأن عنترة يتعرض لأهوال جم، ومؤامرات عديدة يقع أحيانا في قبضة

الأعداء وبينما الراوي باحيمد يصل إلى تلك اللحظات العصيبة في حياة عنترة يحين موعد صلاة العشاء ولأن الصلاة على المؤمنين كانت كتابا موقوتا يذهب السامرون إلى المسجد وفي نفسهم حسرة على عنترة ومصيره. لهذا تجدهم بعد الفراغ من الصلاة ورغم أن زمن الرواية (بين العشاءين) قد انتهى يلحّون على الحكّاء باحيمد لاستئناف الحكاية إلى أن يتحرر عنترة من قيود الأعداء، ويعود يجول بفرسه الصحارى والقفار باحثا عن معركة يهز فيها قلوب الرجال، ونصر يسترضي به قلب حبيبته وابنة عمة عبله ابنة مالك. أما المكلاويون وقد تشبعت أرواحهم بوهج البطولة، وبعد أن اطمأنوا على بطلهم الشعبي يعودون إلى بيوتهم حاملين في قلوبهم رايات النصر.

وتتوسع مدينة المكلا ويظهر حي سكني جديد يسمى حي (برع السدة) ، أي خارج بوابة المدينة الرئيسة ويقع إلى الغرب من مسجد السلطان عمر بن عوض القعيطي، في هذا الحي الجديد شيدت أربعة مساجد هي: مسجد بصعر، ومسجد بن علوي، ومسجد المشهور، ومسجد بازرعة، وفي ركن يمكن أن نقول إنه متوسط بين هذه

المساجد ظهر الحكّاء المكلاوي علي بن عبدالله بن طاهر الصيعري الكندي وتدل المكانة الاجتماعية لهذا الشهريار على ملمح من ملامح مدينة المكلا التي أخذت تتخلص تدريجيا من بعض المحاذير المتوارثة والشيخ علي بن طاهر معلم بناء لكنه رغم الجهد العضلي الذي يبذله في هذه المهنة فإنه كان حريصا على أن تزدهي عصريات المكلا بحكاية عنترة والزير سالم وأبو زيد الهلالي ويتناص في ذلك مع زميله الشيخ عبدالله باحيمد في نوع الحكاية وفي الجمهور العاشق للبطولات والمغامرات ويختلف معه في زمان الحكاية ومكانها فبينما باحيمد يفترش الأرض مع أصحابه كان الراوي (بن طاهر) يجلس على كرسي أو فوق (دكة) ومن تحته يجلس المستمعون السعداء، وعندما أخذت السنين منه ما أخذت واصل الحكاية جيل جديد من الشباب حرص على ان يستمر حي برع السدة يحكي الحكاية تلو الحكاية.

ولم يستطع حي برع السدة الفكاك من هذه التسمية حتى بعد أن صار حياً أصيلاً وداخل سدة المكلا الأخيرة المطلة على (العيقة) والمقابلة للحي الناهض (شرج باسالم) ورغم أن هذا الحي الجديد

يقع خارج سدة المكلا ويستحق لقب برع السدة إلا أن التسمية القديمة علقت بصاحبها الأول. المهم اندمج سكان هذا الحي من الصيادين والحمالين وهم الأكثرية مع إيقاعات المدينة، وبالعدوى أو بأي شيء آخر أنجبت الشرج (شهرياراتها) وكما يقول عامة الناس : " محد أحسن من حد" وممن اشتهر من (رواة) هذا الحي هو الشيخ (صالح سالم باهرب)، وكما تقارب الشيخ بن طاهر مع الشيخ باحيمد في موضوع الحكاية وفي جذب المريدين تقارب الشيخ باهرب مع الشيخ عبد أحمد في أمور كثيرة، واختلفا في أمور فكلاهما كان له علاقة ما بالبحر والصيد، وكلاهما ترك لخياله العنان في سرد الحكاية، وكلاهما امتلك القدرة على جذب المريدين، واختلفا في زمان الرواية فالشيخ باهرب يحكي الحكايات بعد صلاة العصر إلى وقت صلاة المغرب. وبعد غياب الشيخ باهرب استمرت الحكاية في حي شرج باسالم بظهور الشيخ (سالم باكونه) الذي جاء في زمن بدأ ينحسر فيه عشق المكلاويين للحكاية بعد أن تعددت أمامهم البدائل، إلى أن صارت مدينة المكلا مصدراً للحكاية أو هي الحكاية ذاتها....

جولة في حصون حكام حضرموت وقصورهم

أول لقب حمله الحكام الحضارمة خلال تاريخ بلادهم السياسي هو لقب المكرب، وأولهم :(يشكر آل يهرعش بن أبي يسع) وآخر لقب هو لقب السلطان الذي اختفى برحيل كل من السلطان غالب بن عوض عن السلطنة القعيطية والسلطان حسين بن علي عن السلطنة الكثيرية، ونقصد بالحكام الحضارمة هنا هم الذين أخذوا شرعيتهم من داخل حصون حضرموت أو في بلاط قصورها. وفي الوسط بين لقبي المكرب والسلطان تعددت الألقاب، وتحركت مع تحولات أحداث التاريخ، وتباينت من حيث أهميتها التاريخية ورمزيتها السياسية. وأهم هذه الألقاب التي حملها رأس الحكم في حضرموت هي: الملك، والقيل، والخليفة، والإمام، والشيخ، والنقيب، والأمير، والجمعدار.

وفي معظم مراحل التاريخ الحضرمي سمي مقر الحكم بـــ (الحصن) وأحيانا (القصر). وقد تم التوسع في تشييد الاستحكامات الدفاعية للمدن في مرحلة العصور الوسطى عندما صار الفعل

السياسي الحضرمي الداخلي هو المهيمن على مشهد الأحداث. وبعد انحسار عصر المشاركة في (المغامرات) الحربية في ضمن تحركات الدول الإسلامية الكبرى.

والحصن بناء حربي دفاعي ارتبط بالصراعات السياسية والعسكرية وبما تستدعيه تقلبات الأحوال، وأبواب الحيطة من الدفاع عن المدن والممتلكات. وللحصون وظائف متعددة: فقد تكون مقرا للحكم ومكان سكن أسرة الحاكم ومعاونيه، وقد تكون مركزا دفاعيا وسكنا للجنود.

وعموما تعد الحصون خط الدفاع الرئيس عن الكيانات السياسية ومن أهم رموز وجودها، وعلامة من علامات استمراريتها. وتشيد هذه الحصون عادة في أطراف المدن الرئيسة، أو في وسطها. وقد تكون هذه الحصون صغيرة مثل: حصن الغويزي شرقي مدينة المكلا، أو كبيرة مثل: الحصن الدويل (قصر) السلاطين الكثيريين.

وبقيام السلطنة الكثيرية الحضرمية في بداية القرن الخامس عشر الميلادي (أواخر العصور الوسطى وبداية الحديثة) تغير النظام

الدفاعي الذي اعتمدت عليه دويلات المدن (المدينة الحصن) إلى الدولة متعددة المدن والحصون وتحولت رمزية الحكم في حصن المدينة الرئيسة (العاصمة) وأدى هذا التوسع السياسي مع تعدد المنافسين والطامعين إلى تكرار سيناريو سقوط الحصون واستعادتها بحسب تغير قوانين القوة وشروطها.

ولهذا انتشرت الثقافة العسكرية الدفاعية داخل المدن وفي خارجها وتغيرت أنماطها فبينما كانت الحصون قبل القرن السادس عشر الميلادي أي قبل دخول السلاح الناري (البندقية) إلى حضرموت تتميز بفتحاتها الكبيرة وباتساع سمك جدرانها لمنع تقدم المقاتلين الراجلين، حدث تغيّر في النظام الدفاعي فاختصرت مسافة الفتحات بحيث تسمح ببروز مواسير البنادق وتحمي المدافعين.

وغالبا ما تشيد الحصون على التلال، وفي المرتفعات لتسهل مراقبة الأعداء المحتملين، ولأهميتها في السيطرة عندما يحمى وطيس الحرب.

بعد رحيل السلاطين الكثيريين في العقود الأولى من القرن الثامن عشر الميلادي احتفظت القوى اليافعية بما تحت أيديها من الحصون؛

ولأن اليافعيين كانوا في بداية أمرهم قوة عسكرية رسمية تابعة للكثيريين لهذا نقلوا إلى حضرموت مشكلاتهم القبلية، ولم يتحولوا إلى مشروع سياسي فاعل إلا في مراحل لاحقة ، لهذا استمرت حضرموت تعاني التمزق السياسي والفوضى القبلية، وهذا يعني ازدياد الحاجة لبناء الاستحكامات الدفاعية.

وهكذا احتلت مفردة الحصن مكانا قويا في واقع حضرموت السياسي وأخذت مكانها في الثقافة الشفاهية الشعبية ، وضربت في الأمثال الشعبية بوصفها موضع للشرف، وموطن لإظهار الشجاعة لهذا جاء في المثل الحضرمي: (قتِل تحت حصن) كما احتلت اللفظة حيزاً لافتاً في متون المصادر التاريخية التي زخرت بذكر ثنائية المدينة والحصن وبخاصة عند تناولها لمعارك صمود المدن أو سقوطها.

في بداية القرن التاسع عشر الميلادي استفاد الحضارمة من تشجيع الأمراء المسلمين في حيدر أباد بالهند على تجنيد العرب في جيوشهم. وبهذا عاد مظهر من مظاهر عصر المغامرات العسكرية الخارجية مع الفارق أن المغامرين الحضارمة في المغامرات السابقة (الفتوحات

الإسلامية) كانوا يذوبون في الفعل الحربي ، والسياسي خارج حضرموت. أما في هذه المرحلة فإن الناجحين منهم في تقلد الرتب العسكرية العليا، وفي جمع الثروات الكبيرة عادوا إلى حضرموت وغيروا المعادلة السياسية بإسناد من هذه الثروات، وبالخبرات العسكرية المكتسبة. لهذا ظهرت في حضرموت تقاليد عسكرية وافدة، وأسلحة متطورة، واشتدت حاجة المغامرين السياسيين إلى استحقاقات الجهد الدفاعي، والفعل الهجومي.

وفي حمى استعدادات المتنافسين في بناء التجهيزات الحربية المعززة بثروات الهند أشاد أحد الشعراء المحليين بالحصن الذي بناه المغامر السياسي عبدالله بن علي العولقي في منطقة الصداع بالقرب من مدينة غيل باوزير وقال:

سلام ألفين على حصن فوق قارة بناه العولقي ما عوّل بالخسارة

أما الشاعر حسين المحضار فقد استخدم لفظة الحصن في رمزية من رمزياته عندما قال:

ياحصن مول البناقل محلى ركونك

خيفان بعد الزوامل ينعق عليك الغراب

والأكوات مفردة من مفردات التقاليد العسكرية الحضرمية وهي في الأصل حصون صغيرة تشيّد على مشارف المدن أو على المناطق الاستراتيجية غير البعيدة من المدن أو وسط الساحات أو الميادين العامة وهي في الغالب خط الدفاع الأول للمدن.وهكذا طغت لفظة الحصن في حضرموت بوصفها مقرا للحكم على لفظة القصر.

وقد أطلق علماء الآثار على مقر الملوك الحضارمة في مملكتهم القديمة (القصر الملكي) واقترنت هذه التسمية بملوك هذه المملكة ولا نكاد نجد لها مكانا في المصادر الحضرمية – على حد علمنا – إلا إشارات عابرة إلى أن بنى القعيطيون قصرهم الشهير المسمى بقصر المعين. ورغم حصن الحكم الكثيري في مدينة سيئون هو الأقدم، ويستحق من حيث الاتساع تسمية القصر فإن لفظة (الحصن الدويل) اقترنت به، واشتهر بها. وهذ ا(الحصن- القصر) يعد تحفة أثرية معمارية عسكرية قائمة عابرة للعصور، ويحيل صموده واستمرار وظيفته حتى سقوط السلطنة الكثيرية في عام ١٩٦٧م إلى حالة المراوحة الحضارية التقليدية للمدن التابعة لهذه السلطنة، وبطء

حركتها مقارنة بتطور بعض المدن الساحلية الحضرمية، ومع حركة عجلة الزمن التي دائما لا تنتظر المترددين.

وعلى أية حال فإن تشييد قصر المعين القعيطي كان إيذاناً بمرحلة جديدة في تاريخ حضرموت حملت دلالات متنوعة، ففيها تخلى الحكام طواعية عن الحصون المنيعة وهي خطوة تشي بملمح من ملامح الحكم المدني مع الاحتفاظ ببعض وظائف الحصون (الإقامة – الحكم).

والجديد في القصر هو غياب الرموز الحربية التقليدية المميزة للحصون والاعتماد بصورة رئيسة على الحماية الخارجية التي تمثلها المعسكرات القائمة في أماكنها المخصصة، ولهذا عندما سلمت قوات السلطنة القعيطية معسكراتها للجبهة القومية سقط القصر بدون مقاومة.

وعلاقة قصر المعين بالمكلاويين علاقة خاصة امتزجت بالفرح والدم والثقافة. فساحاته لم تكن مغلقة أمام الناس بل كانت ميدانا للاحتفالات الرسمية ، والدينية ، ومكانًا لإقامة الحفلات الغنائية، والنشاط المسرحي وعرض الأفلام السينمائية. لهذا فإن أصحاب القصر

القعيطي لم يكونوا غرباء على نشاطات أهالي مدينة المكلا بل كانوا شركاء معهم في الفرح الجمعي بصورة مباشرة أو غير مباشرة، والحالة الوحيدة التي ارتبط فيها القصر بإراقة الدماء وسقوط الشهداء هي حادثة القصر الشهيرة في ديسمبر عام ١٩٥٠م. ورغم ما واكب هذه الحادثة الأليمة من اعتداء مباشر على مبنى القصر، ومحاولة اقتحامه فإن القصر استمر في استقبال التجمعات الرسمية والحشود المهرجانية، والنشاطات الثقافية.

بعد نهاية الحكم السلاطيني جاءت شرعية حاكم حضرموت سواء أكان حضرميا أم غير حضرمي من خارجها وبصرف النظر عن دلالات ذلك وملابساته فإن الحصون الحضرمية فقدت أهميتها وعادت - كما في مراحل تاريخية سابقة- خطاً فرعياً من خطوط الدفاعات الفرعية فلم تعد هناك قيمة سياسية للقصر في حضرموت لهذا حوّله الثوار إلى متحف كبير ودوائر حكومية لها علاقة بالثقافة والفن والتاريخ وبعد أن كان الناس في عهد السلاطين يتجولون بحرية في ساحاته الخارجية سمح لهم الثوار بالفرجة في فنائه الداخلي، وبهذا فقد القصر رمزيته.

وقد خاصم الثوار لفظة القصر ؛ لأنهم رأوا بينها وبين أهلها وشائج قربى لهذا أطلقوا على قصورهم الرئاسية (دار الرئاسة) حتى لا تذكرهم بالقصور وأهلها.

وبعد قيام الجمهورية اليمنية عادت مفردة القصر بقوة ولاسيما بعد رحيل (الثوار) على السلاطين وانتشرت القصور الرئاسية في المدن الرئيسة وهي سُنة من سُنن الرؤساء العرب في الجمهوريات الملكية، وبعد أن كان السلاطين يبنون قصورهم من أموالهم الخاصة بُنيت القصور في الجمهوريات الملكية من أموال الناس وعلى حساب تعليمهم وصحتهم وتنميتهم، وشيدت بغرض سكن الحاكم وأهله لأيام، وربما لساعات في السنة وبكلفة مالية مفتوحة كانفتاح خزائن الأرض للرئيس السلطان أو الملك الرئيس وصارت (حصونًا) أكثر منها قصورًا، وبينما كان قصر السلاطين (العائلي) في عهد السلاطين مفتوحاً للفرح والبهجة صار دخول قصر الرئيس (الجمهوري) محرماً على الناس صغيرهم وكبيرهم إلا لضيوف من طراز معروف.

خامسًا: مع أولاد حافتنا

دكان عبد نصيب

بيوت حافتنا (حارتنا) متجاورة، وبعضها متلاصقة، تكاد كلها تكون بيتًا واحدًا بعائلة واحدة، فأولاد حافتنا يستطيعون معرفة أنواع الطعام المطبوخ عند بعضهم البعض من خلال الأبخرة المتطايرة، كما يتابعون لحظات غسل (الصحون) بعد امتلاء البطون، ويستطيعون تخمين ساعات السمر، وأوقات النوم، ويستطيعون تحديد الأغاني المسموعة المسجلة، والإذاعة الملتقطة، وأول من يعرفون بشائر الفرح، ويبادرون في لحظات الترح.

ينطلق الناس في حافتنا كل إلى حال سبيله، ومصدر رزقه، ومكان دراسته، لكن حافتنا لا تخلو من الحركة إذ تجد الأطفال في كل زواياها يمارسون لعبة الكبار بطريقتهم الخاصة، فهم يلعبون (أولاد وبنات) لعبة الحياة الكبرى بعفوية لتزجية أوقاتهم، ومنهم من يخوض في بناء البيوت الترابية ويتخيلون ما شاء لهم التخيل من مداخلها

ومخارجها وأزقتها، ومنهم يفضل اللعب بحسب ما يحددها القادة الصغار، وغالبًا ما تميل البنات نحو لعبة قفز الحبل، بينما تجد الأولاد أقرب إلى اللعب الذي يرتبط بالجري، وبجانبهم تمرح الأغنام، تتصرف بحرية، وبنوع من البلاهة، وتتعارك القطط لأمور غامضة، وتكون الدجاج في أشد يقظتها من المتربصين بها، وبأولادها الصغار، وأحيانًا يقتنص بعض الديوك غفلتها، أو بالسيطرة عليها بعد لعبة المطاردة.

وغالبًا ما يبقى مع أطفال حافتنا من عالم الكبار العم (عبد نصيب) الذي يلبي بحانوته (دكانه) حاجة الحافة من المواد الغذائية، ويوفر للأطفال أنواعًا رخيصة من الحلويات. العم عبد شخصية محورية في الحافة ليس فقط من خلال تعامل الجميع معه بوصفه تاجر الحافة، والمتعهد عند (الحكومة) في صرف ما يحدد للعائلات من مواد غذائية شهرية كالسكر وغيره حسب، بل لأنه محل ثقة الجميع وكونه شخصية مرحة ومسالمة وبشوشة. من خلاله عرفت الحافة قرية (السويري) الواقعة بالقرب من مدينة تريم بوادي حضرموت، وحبه

لقريته - التي لم يمكث فيها إلا سنين طفولته - مشهود، وهو يتعامل معها كأنها كيان مستقل أو هكذا يتمنى... وأضحى جوابه مشهورًا لمن يسأل عن موطن البضاعة فالجواب السريع: من السويري، لكنه وباستدراك يكاد لا ينفصل يذكر موطن البضاعة الأصلي.

تاجر الحافة يحمل قصة الحضرمي المهاجر التقليدي الذي جرب حظه في السفر، ثم عاد بما كسبه علّه يجد في الوطن مستقرًا وراحة. ومما تعلمه في أرض الغربة اللغة السواحلية التي يجيدها، وإلى حد ما اللغة الإنجليزية التي يتعمد التحدث بها مع المتعلمين. إلا أننا نلاحظ انطلاق لسانه وانسجامه وربما متعته عندما يتحدث باللغة السواحلية مع زملائه من المهاجرين رجالًا ونساء، وفي مثل تلك المواقف يتغلب علينا الشيطان عندما تعترينا بعض الظنون الآثمة.

حظ تاجر حافتنا - أطال الله عمره - من مكاسب التجارة محدود، بل كان يسير سيرته الواضحة نحو النزول، دكان حافتنا ممتلئ بما هو ضروري لحياة الناس، وفقير ببعض السلع التموينية (الكمالية) التي تظهر فجأة أو يجلبها المسافرون معهم مثل حلاوة الطحينية،

والعصائر المعلبة، وأنواع البسكويت وغيرها، لهذا فالدقيق بنوعيه الأبيض والأحمر، والرز بنوعيه الصيني والكورا (من كوريا)، والسمن، والسليط، وسمك القرش المجفف (اللخم)، والبصل، وسلع أخرى مشابهة مما أحلّ الله تجدها في دكانه. من الأمور العادية في حافتنا تطوع بعض الأولاد لتلبية حاجات الزبائن عندما ينغمس صاحبنا في لعبة (الدمنة) التي تقام بجانب دكانه، والغالب أن العم عبد يكون مهزومًا، وإذا انتصر – وانتصاراته نادرة – يظل يتحدث عنها أيامًا. المهم أن تعامل أولاد حافتنا مع الميزان ذي الكفتين الكبيرتين المربوطتين بسلاسل متوازنة، وممارستهم (لعبة) البيع ومحاسبة الزبائن، بل وتسجيل الدّين على المدينين تظل من المتع التي لا حد لها، وها هنا لا مكان لكلمة الخيانة بيننا.

ويتطلع أولاد حافتنا ولا سيما المراهقون منهم إلى معرفة عوالم جديدة، مدفوعين إلى ذلك بتغيرات بيولوجية في دواخلهم يجد البعض ضالته في المجلات الأجنبية التي تستخدم لوضع السلع فيها كالدقيق والسكر وغيرها، فخلال صفحات هذه الجرائد يصطاد

البعض منهم وريقات فيها صور لبنات الإفرنج، ويذهب بها بعيدًا... وحقيقة الأمر أن دكان حافتنا لا يخلو من المغازلات والتلميحات وأحيانًا التصريحات التي تروق للشباب والمراهقين، وأحيانًا يكون صاحب الدكان بعفويته المعهودة وحلاوة دمه هو مصدرها. وقد تزوج تاجرنا متأخرًا لهذا يشاهد بعض نسوة الحافة المسنات يمازحنه جهارًا عن سبب تأخره عن متجره، والرد في الغالب يكون بحركات تقليدية يُعرف بعدها بأن شيئًا حميميًا قد حدث في ليلته الماضية.

تاجر حافتنا هو الوحيد الذي يعرفه كل أفرادها فيتعامل مع الصغير والكبير، ويعرف أسماءهم وقدراتهم الشرائية، وإلى حد ما طبائعهم ونفسياتهم، لهذا يعد من أهم أركانها المرتبطين بها وبأهلها والكاتمين لأسرارها.

وقرية السويري التي تغنى بها تاجرنا في بضائعه وأدخلها إلى قاموسنا عنوة تأتي أحيانًا إلى حافتنا من خلال زيارة أقاربه وأصدقائه وجيرانه.. من هؤلاء (بلدياته) الأستاذ فيصل بن شملان، الذي

انضم إلى مجموعة حافتنا للعبة الدمنة، ومن زار دكانه وجلس فيه الشاعر حسين أبوبكر المحضار، وظل لسنين يتباهى بهاتين الزيارتين، عندما توفي الشاعر المحضار شد الصديق (عبد) الرحال بسيارة أجرة إلى الشحر، وهو لا يعرف من آل المحضار إلا المحضار، كان عدد المشيعين كبيرًا زاحم تاجرنا للإمساك بنعش صديقه، وبعد مراسيم الدفن عاد إلى المكلا، وعندما سئل لماذا لم تكمل واجب العزاء لأهل المحضار؟ تأوه وقال: حضرت فقط لأودع الحبيب... يا جارنا الطيب سعيكم مشكور.

تراب حافتنا غالٍ علينا، يمتزج هذا التراب بمخلفات جيراننا الحيوانات، وبقايا طعامها في أماكن سكنها (الصنادق الخشبية) الثابتة المعمولة من الخشب، أو تلك المنصوبة على عمود يحمل عدة ألواح مثبتة أفقيًا (المديّة) لرفع الدجاج وحمايتها من مكائد غرماء الليل. كما يتبلل تراب حافتنا بماء ثياب الغسيل المتدلية على الحبال البارزة بين النوافذ، وذلك المسكوب من أسطح البيوت عبر الميازيب (المراعيض)، وما يبعثه ذلك من روائح كريهة.. ومع هذا فإن حافتنا

يمكن عدها من (الحويف) النظيفة، فقد تعهد بنظافة شوارعها بلدية المدينة من خلال عاملات نظافة زودن بأنواع من المكانس (المقيش) المعمولة من عيدان رفيعة مربوطة ببعضها البعض وهي قوية ولينة في ذات الوقت. وتمارس حافتنا أحيانًا النظافة الجماعية بمناشدات رسمية أقرب إلى الفرض منها إلى التطوع، وكانت أكبر معضلات حافتنا مع النظافة في بقاء مخلفات الإنسان في غرف خاصة أسفل المنازل، ورغم التصفية الدورية لتلك المخلفات من قبل بلدية المدينة والاستعانة بعمال هنود تعزز العمالة المحلية فإن تلك المعضلة لم يتم حلها والتخلص من كابوسها إلا بعد مشروع المجاري التي نفذته شركة أجنبية (الدندار).

يشعر أولاد حافتنا غالبًا بالأمان، وهو في الأصل يسود أرجاء المدينة. كما أن حافتنا بعيدة عن طريق السيارات الرئيسة، وما تمثله أحيانًا من مخاطر، إضافة إلى معرفة الناس لبعضهم البعض، وسهولة تمييز الغرباء، لهذا ليس غريبًا لو وجدت أطفال حافتنا يسهرون تحت البيوت إلى ما بعد صلاة العشاء، وهذا التجمع الطفولي يفرز

احتكاكًا طبيعيًا بين الأنداد لكنه ينتهي في محيطهم، ولا يصل إلى الكبار إلا في الحالات النادرة، وهناك تجد لها مجالًا للتهدئة، وعمومًا كانت العلاقات بين العائلات تقوم على أساس احترام حق الجار، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية إلا بالتي هي أحسن، ورغم انتمائهم إلى تراتبيات اجتماعية متنوعة وممارستهم مهنًا مختلفة فإن فروق التمايز في المظهر تكاد تكون معدومة إلا عند أولئك الذين تتطلب طبيعة مهنتهم ذلك، أو لمن عنده الرغبة الخاصة في الظهور بالمظهر اللائق والمميز. أما أطفال حافتنا ومراهقوها فيشكلون نسيجًا متشابهًا تختفي بعدها الفروق التي يحافظ على بعضها الكبار، ومع هذا فإن تمايزهم يقوم على أساس القدرة على القيادة أو في التصدي (للأعداء)، والإجادة في الألعاب، ومدى سلاسة الاندماج.

في حافتنا يدور الزمن دورته الصارمة، ويأخذ قانون الحياة مجراه، فيها الناس أنواع منهم: الصالحون والطالحون، الغامضون والواضحون، وهؤلاء وإن التقوا في أمور، تقاطعوا في غيرها لكن في أعماق كل فرد من أفراد حافتنا قصة تبدأ بحلم تخلّق فيها، ومنها انطلق...

مركب بقيق

بحر المكلا لا يكل ولا ينام، تتدافع أمواجه بإصرار نحو البيوت القريبة، يداعبها بحنان، ويدغدغ أقدامها بقشعريرة من وئام. تنتشر على حافة الشواطئ قوارب الصيادين الخشبية ذات الدفع اليدوي بالمجاديف، وعلى تخوم الخلجان وغير بعيدة من الأعماق تتدافع السفن الشراعية للوصول بالقرب من الميناء مستفيدة من كرم الرياح، وبراعة الملاح. ومن أعالي البحار تتقدم المراكب الحديثة بثقة معلنة عن نفسها بأبواقها التي تخترق سكينة المدينة.

تنتشي مدينة المكلا بخيرات بحرها من الأسماك ، وتتباهى بالبضائع المجلوبة إلى مينائها مما ينفع الناس، ويتعانق القادمون مع ذويهم بدموع من فرح وقلوب معصورة بالشوق، وفي المكان ذاته تلوح إشارات الوداع، وعلى أديم السفن والمراكب وحيث ما ذكر المسافر تحضر العبرات التي لا يكفكفها إلا الأمل والرجاء.

في يوم جديد كانت مدينتنا على موعد مع خبر غريب؛ فقد وقع مركب كبير تحت براثن صخرة بحرية عظيمة (قشارة) ولم يستطع

الفكاك منها، وانتشر الخبر في المدينة وتعددت الروايات؛ هناك من يرى أن في الأمر تقصيرًا من الربان، وآخرون عزوه إلى سرعة الرياح وتلاطم الأمواج، وأصحاب نظرية المؤامرة يذهبون إلى رواية الفعل العمد كي يتحصل أرباب المركب على التعويض السخي.

وأيًّا كان السبب فإن حدث غرق المركب في مدينة المكلا صار علامة في تاريخها، فإذا كان العرب قبل الإسلام يؤرخون بأيامهم المشهورة وحوادثهم المشهودة مثل: يوم حليمة، ويوم ذي قار، وعام الفيل... إلخ. فإن هذه العادة امتدت عند العامة لقرون عديدة وظلت جنبًا إلى جنب مع التاريخ الهجري المستخدم في العالم الإسلامي. ومدينة المكلا كان لها نصيبها من الحوادث والأيام التي أرخت بها بعض أيامها من أشهرها (حادثة القصر) عام ١٩٥٠م، و(حادثة مركب بقيق) عام ١٩٦٢م، وبهذين الحدثين أرخت الكثير من الولادات وحفلات الزواج، وأيام البلوغ، وقدوم المسافرين، أو مغادرتهم... فكثيرًا ما تسمع عند الناس في المكلا على سبيل المثال الوصف الآتي: فلان ولد أو فلانة تزوجت في سنة

حادثة القصر أو بعدها بسنة أو سنتين أو قبلها. ومتروك للمستمع البحث عن ما يقارب هذا. وجيلي ارتبط تاريخ ميلاده بـ (مركب بقيق)، بيد أن التأريخ بـ (حادثة القصر) هو الغالب والأشهر؛ لأن عقد الستينيات من القرن الماضي شهد تطورات إدارية وثقافية سهلت تسجيل الحوادث والأيام.

اشتهر المركب باسم (بِقيق) - بكسر القاف- نسبة لمدينة سعودية، بينما يطلق عليه سكان المكلا (بقَيق) - بفتح القاف-. ويقال إن اسمه الحقيقي المكتوب على مقدمته هو (نجمة مكة)، وكيفما كان الاسم لقد صار المركب حقيقة من حقائق المكلا المكانية، استمر لسنوات عديدة مطلًا بمقدمته على المدينة ولم يولِّها الدبر حتى آخر أيامه، وخلال العقود الأربعة التي مكثها مركب بقيق ضيفًا على مكلانا خلق نوعًا من الألفة بينه وبين أهلها، كما أصبح منارًا لأهل السفن والمراكب حماها من الفخاخ البحرية الرابضة بين جوانبه وتحت أقدامه.

ولم يترك شباب المكلا ومراهقوها هذا المركب وحيدًا يصارع الزمن والأمواج بل خصوه بالزيارات اليومية وشبه اليومية ولا سيما

في الإجازات الصيفية. وللوصول إليه ينطلق (المغامرون) من ثلاثة محاور رئيسة: الأول محور الساحل المجاور لمدرسة الحرية الابتدائية والمحاذي لقشارة (سانجي)، وهو محور أولاد حافتنا والحافات المجاورة لها، والمحور الثاني ينطلق من خلف البنك الأهلي أو خلف مبنى البريد، والثالث ينطلق من منطقة (القالدة) التي هي تقع آخر اللسان الغربي للمكلا بجوار الميناء (الفرضة).

ولأن معظم جيران البحر يجيدون السباحة فصار التنافس وإظهار المهارة في الطلوع إلى مركب بقيق عن طريق السباحة دون الاستعانة بأي وسيلة مساعدة مظهرًا من مظاهر التباهي واستعراض الشجاعة. والمسافة بين اليابسة ومركب بقيق تقارب الكيلومتر والنصف، لهذا فإن الطريق إليه غالبًا ما يكون محفوفًا بالمخاطر منها ما يتعلق بأسماك البحر ومفاجآته، وأخرى تتعلق بالسبّاح نفسه واحتمالات إصابته في عرض البحر بأنواع من الشد العضلي، أو أي مشاكل صحية، ومع واقعية هذه الاحتمالات لم نسمع بأي حادثة غرق في الطريق إلى بقيق.

وإذا كانت نسبة الأمان كبيرة عند من يجيد السباحة، فالخطر المحدق ستجده عند آخرين لا يجيدون السباحة إلا لأمتار معدودات، وكانت وسيلتهم في الطريق إلى بقيق (تيوبات) السيارات المعبأة بالهواء، وهو طوق النجاة الوحيد، أحيانًا يكون أكثر من مغامر على (التيوب) الواحد، والرحلة في هذه الحالة أشد خطورة من سابقتها فأي تسرب للهواء، أو أمواج عاتية سيفقدهم السيطرة على (التيوب)، وهذا يعني الموت المحقق. لكن أولاد حافتنا (المتهوّرين) ينطلقون إلى بقيق ليس بقانون الشجاعة بل بثقافة البحر المرتبطة بالماء المالح، ورائحة القوارب المدهونة بـ (الصيفة)، وعصريات الصيادين في ترميم الشباك، والسواعي الشراعية المنهكة، والمراكب ذات الأسرار، وقصص الأسفار، وأسماك الدلفين العابرة (حمار البحر)، وصدف البحر، وحواديث آل صور المرعبة، ومواويل الصيادين، وحكايات السمر...

الحمد لله على السلامة كل أولاد حافتنا عادوا بخير.

وهكذا عرف أولاد حافتنا مركب بقيق وهو بكامل عافيته، وتابعوا مراحل انهياره التدريجي حتى اختفائه في باطن البحر حيث المخالب الراسخة، لقد صمد مركبهم بأقوى ما يكون الصمود، وقاوم مقاومة الأبطال، وتمنى رغم الجراح أن يبقى مع الناس يهدي الضال، ويحث على الكدح والنضال...

سلام لك منا يا بقيق سلام...

أقمار حافتنا

تستحم حافتنا بماء المطر، وتطهر بالسيول القادمة من المرتفعات الجبلية، فتبدو البيوت المستلقية على سفوحها كعذارى ساحرات بين أحضان عملاق من بقايا أمراء آل عاد، ومدينتهم إرم ذات العماد، يبارك هذه العلاقة العفيفة بحر المكلا بنفحاته الجميلة التي تتعانق في رحلتها السرمدية مع رؤوس المآذن السامقة فتزيدها بركة على بركة؛ لهذا تخلو حافتنا من التسول والمتسولين، يعزز ذلك ثقافة جمعية أصيلة تؤمن بأن اليد العليا خير من اليد السفلى، ورغم ما يبدو على بعض رجال حافتنا من علامات الفقر، والحاجة، فإن شرايين جباههم غالبًا ما تكون مشبعة بالحياء، وتؤثر التعفف ولو بها خصاصة.

الحدود الصغرى لحافتنا في جهتها الشرقية تصل إلى الواجهة القبلية لمسجد بن علوي، الذي يبعد تقريبًا مسافة مائة متر عن مسجد الحافة الرئيس (المشهور) بزاوية مائلة شمالية شرقية، أما حدودها الغربية فتتعدى مسجد بازرعة لتصل إلى تخوم دار المستشارية البريطانية التي صارت مقر الحكم لمحافظ المحافظة بعد رحيل السلاطين. يعيش على

هذه الرقعة وفي البيوت المتعددة الطوابق والشقق عشرات العائلات باختلاف تراتبها الاجتماعي وتنوع مهنها الشعبية، ووظائفها الرسمية.

في تلك المرحلة لا نبالغ إذا قلنا إن كل الرجال في حافتنا القادرين على العمل يستطيعون الحصول على وظيفة بحسب المؤهل، والمهنة سواء أكانت فنية أم عضلية، وهي سياسة منظمة حرص على ترسيخها الحكام اللاحقون للسلاطين، ومع هذا تجد في حافتنا من يفضل الوظيفة الخاصة أو الحرة، وإذا عُدّ هذا المنحى من الأمور العادية التي تشترك فيها كثير من التجمعات البشرية، فإن اللافت في حافتنا يكمن في تقديمها لخمسة نماذج من رجالها العاملين المكافحين الذين يستحقون التوقف والتأمل والإعجاب؛ وذلك بتمكنهم من كسر حاجز الإعاقة البصرية ودخولهم في معترك الحياة بعزة وإصرار، بحيث لم يتركوا شعورًا بأنهم أعباء على المجتمع؛ لهذا من حق حافتنا الافتخار بهم، وعدّهم من رموزها المشرّفة، وهم حسب ما اشتهروا به من أسماء وألقاب:

١ – العم (حبريش) حامل لواء النظافة.

٢ – العم (المراوي) الصامت الحكيم.

٣- العم (العباد) صاحب المقبلات.

٤- العم (مِحمّد) صديق الأطفال.

٥- العم (علي بعرة) مصدر الطاقة.

وإذا بدأنا بالعم (حبريش) فهذا يعني اصطفافنا وراء رمز النظافة لمسجد بازرعة. يسكن حبريش في البيت المقابل للمسجد من جهة الشمال وهو من بيوت الأوقاف التابعة له، وهذا التجاور سهّل حركته دون الاضطرار إلى طلب المساعدة. المهمة اليومية التي يقوم بها هي تنظيف المسجد وإفراغ (الجوابي) و(المقالد) من المياه، ثم إعادة تعبئتها بماء بئر المسجد التي تُشكّل ركنًا مهمًا من مكوناته، وكذا تعبئة خزانات ماء الطهور المرتبطة بالحنفيات.

والجوابي عبارة عن أحواض مفتوحة معبأة بالماء، وهي توجد في معظم مساجد حضرموت، وتقع في مكان الطهارة والوضوء، وتنقسم إلى صغرى وكبرى، تقع الجابية الصغرى عند بوابة الدخول الرئيسة لمكان الوضوء ومهمتها الأساسية تنظيف الأقدام والأحذية قبل استخدام الجابية الكبرى المخصصة للوضوء وهي أوسع من سابقتها، ورغم الفلترة الأولى التي تقدمها الجابية الصغرى فإن هذه

الطريقة التي يفضلها البعض على مياه الحنفيات النظيفة الموجودة بالجوار توفر بيئة مناسبة لانتقال الأمراض الجلدية المعدية فداخلها يختلط الحابل بالنابل، ولكن مع ازدياد الوعي الصحي، وفي دورات الترميم التي تشهدها بعض المساجد بدأت تختفي تدريجيًا هذه العادة غير الصحية في الوضوء.

أما المقالد فهي عبارة عن برك صغيرة من المياه تتراوح مساحتها بين المتر ونصف المتر، بعمق لا يتجاوز قامة الرجل المتوسط الطول وغالبًا ما تستخدم للاستحمام الكامل، وهي على شكل غرف بأبواب خشبية مصنوعة بعناية خاصة.

عادة يُشَاهَد العم حبريش بعد الفراغ من صلاة العشاء في حركة دؤوبة لتنظيف مكان الطهارة، وتجديد مياه الجوابي والمقالد بتشغيله للمكينة الرافعة للمياه، وذلك بخطوات محسوبة ومنظمة لا يشعر من يتابعه بعمل غير طبيعي، ثم يعود إلى بيته – بعد أن يطمئن على نظافة المكان – باستعداد لفجر جديد من يوم جديد.

وفي مهنة أخرى وبطل جديد في حافتنا تجد العم (العباد) يشرع في تجهيز بضاعته ونقلها إلى السوق من شقته الواقعة في البيت

المجاور لمسجد بن علوي. العباد (تاجر) سرّيح يبيع الليمون والفلفل الأخضر، والبقل (الفجل) وغيرها من زمرة المقبلات والمشهيات لوجبة الغداء الرئيسة عند المكلاويين، في وسط السوق يفرش تاجرنا بضاعته ويلتحم مع زملائه من التجار، وبصرف النظر عن الفروقات في أنواع البضائع، ورؤوس الأموال، وحجم المكاسب بينه وبينهم، فهو مثلهم يلعب لعبة البيع والشراء ويرضى بما كسبه من دريهمات حلال.

وتكاد قصة العمّين (محِمّد) و(المرواي) تتشابهان مع زميلهم (العباد) من حيث العمل التجاري ومحدودية المكاسب، مع اختلاف في نوع البضاعة، فالعم (محِمّد) الحريص على تلبية طلبات الأطفال يبيع الألعاب الخفيفة وأنواع من البالونات والحلويات متنقلًا بعدته من مكان إلى آخر، ويجد الزبون الصغير عنده ما تكتمل به فرحته، وذلك بتعبئة البالونة بآلة النفخ اليدوية، أو بالنفخ المباشر عبر الفم. أما عمنا (المراوي) فهو الأكثر ظهورًا في المناسبات فقد تخصص في بيع المعجنات والحلويات الخفيفة يعرضها في مواضع ثابتة، ثم تراه راجعًا إلى بيته قانعًا مثل بقية زملائه بالنصيب والمكتوب.

وخامس رجال حافتنا هو العم (علي بعرة) الذي ترتبط بتجارته قصة الوقود المنزلي والتحولات التي شهدها المطبخ المكلاوي في تلك المدة، وهذه العملية التطورية لا ناقة له فيها ولا جمل، بل هي أثرت على مصدر رزقه، ومست تجارته. يبيع العم علي ما يعرف في حضرموت بـ (الصخر) وهو قطع الفحم الأسود المستخرج من الأخشاب والأشجار بعد حرقها. في تلك المرحلة احتلت هذه المادة مكان السيادة في المطبخ الحضرمي حيث يتم وضعها على سطوح (البوابير) وهي مواقد حديدية مصنوعة محليًا بسطح مشقق يوضع فوقه الفحم، ولكل (بابور) أربع دعائم صغيرة وفتحة في الوسط تسمح بدخول الهواء اللازم لإشعال الفحم، حتى يصير جمرات جاهزة لعملية الطهي، ولحيوية هذه المادة في إعداد الطعام صارت من السلع المطلوبة في السوق وخصصت لها حوانيت، وأصبح لها دورتها الاقتصادية التي تبدأ من أرياف المكلا وبواديها مرورًا بتجّار الجملة في المدينة، إلى أن تصل إلى تجار التجزئة الذين يدخل تاجرنا في زمرتهم.

يتعامل العم علي مع الزبائن بسلاسة، فبضاعته لا تحتاج إلى موازين معقدة بل مكاييل ثابتة يسهل تعبئتها وتحديد أسعارها

بحسب الطلب. وقد امتد به العمر؛ ليشهد عصر إرهاصات انهيار هذه التجارة وذلك بعد استبدال (البوابير) بـ (الشول) التي تشتعل بوساطة الكيروسين (القاز)، وقد وفّر هذا الاستخدام الجديد الكثير من الوقت والعناء لربات البيوت، وعلى أية حال فقد غادر عمنا علي الحياة ومتجره ما زال قائمًا في انتظار الانهيار الكبير بعد انتشار غاز الطبخ في البيوت، ليصير الفحم -كما هو حاله اليوم- سلعة مطلوبة في حدود ضيقة لعشاق الطيب والبخور، والمياه المبخرة باللّبان البدوي، ولأصحاب المزاج، وكذا للراغبين في احتساء الشاهي بالمذاق التقليدي مشفوعًا بالحنين إلى أيام جميلة يتمنون أن تعود.

تجار حافتنا (المبصرون) يتعاملون بسلاسة مع الزبائن، ويعاملهم الزبائن بوصفهم تجارًا محترفين مع تقدير خاص غير محسوس لوضعهم، وقد اكتسب تجارنا مهارة تمييز فئات العملات بالممارسة، وتراكم الخبرة، ساعد على ذلك ثقافة الأمانة الراسخة في الضمير الجمعي. وهكذا تكحلت أبصارنا وارتوت بمشاهدة هذه القامات التي تبدو متواضعة الحال من حيث المهنة وحظ الدنيا، ولكن رمزيات

حضورها في مشهد الحياة وهم من فاقدي نعمة البصر ترفعهم إلى منازل الاحترام العام، وصدق الله العظيم القائل: ﴿ ... فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ نعم كانوا أقمارًا أكثر منهم تجارًا، وكانوا قيمة خُلقية تسير على الأرض، ومدرسة مجانية تقدم أعمق الدروس بأيسر الكلمات، عشنا معهم وعاشوا معنا، ومارسوا حياتهم الطبيعية، وتزوجوا وترك البعض منهم ذرية؛ لتؤكد على استمرارية حركة الحياة في حافتنا بحلوها ومرها.

وكما دارت أقمار حافتنا فوق دُورها وحول مساجدها، دارت الملائكة معهم، وكادت أن تبشرهم بأجر الصابرين، ثم ظهر في حافتنا بعد رحيلهم خلف أضاعوا وصية الآباء، سار بعضهم بدون بوصلة، ومنهم من بكى حظه من الزمان، وقليل منهم بلا مهر انتظروا هبوط عذارى مدينة إرم ذات العماد، في حين حلم بعضهم بلقاء أميرات قصر الملك الحضرمي (العزيلط) في مملكته القديمة، لكن هيهات هيهات...

اسأل مجرب ولا تسأل طبيب

تشق (جوبحيّة) طريقها وسط أزقة حافتنا بسرعة لافتة، وهي عادة لم تستطع الفكاك منها رغم بلوغها من السن عتيًّا. البعض يعدُّ حركتها نوعًا من الحشمة اعتادت عليها منذ أن كانت شابة صغيرة معرضة لعيون الرجال الفضوليين، إلى أن صارت هذه العادة مع مرور الزمن جزءًا من شخصيتها. تخفي (جوبحيّة) جسدها داخل ملايتها السوداء (الشقة)، وتغطي وجهها بخمار (برقع)، يجمع بين اللونين الأسود والأحمر الفاتح الأقرب إلى اللون البرتقالي وهو المفضل عند معظم النساء المسنّات، وبهذه الطريقة في التخفي لم يعد يظهر من جسمها النحيل سوى قدميها المغروزتين في حذائها الجلدي المعمول محليًا فتبدو – وهي القصيرة اللافت قصرها – مثل عذراء خائفة خرجت لتوها من بيت أبيها لغرض سريع تريد إنجازه.

ترتاد جوبحية الأزقة الداخلية لتتمكن من الوصول إلى بيوت (الواجب) حسب عادات نساء المدينة، وهي تلك البيوت التي

يستلزم على النساء زيارتها لأسباب تتعلق بمناسبات الفرح أو الحزن، وأحيانًا (تتمشور) إلى قلب المدينة عندما يكون لها حاجة في سوق النساء، وعلى الرغم من أنها تبدو دائمًا على عجلة من أمرها فإن المتابع لحركتها سيجدها في أحايين كثيرة واقفة تتجاذب أطراف الحديث مع بعض النساء في زوايا ومنعطفات مختلفة من أزقة حافتنا وشوارعها، فتارة تُرى بجانب دكان (عبد نصيب)، وأخرى في الركن الشمالي لبيت آل النوم الموصل زقاقه إلى مسجد بن علوي، أو قد تشاهد بجانب دكان علي بعرة في الزقاق الذي تقع في أسفله دكة بوبك، وأحيانًا تُلمح عند (جابية عطية) الواقعة بين بيت آل بوسبول وبيت آل باراجح العكابرة، بالقرب من البيت الذي يتردد في الإقامة فيه الحكم القبلي صالح بن ثابت، وهو كبير مقادمة قبيلة (نهد).

في تلك اللقاءات العابرة تكون جوبحيّة في موضع المستمع أكثر منه في موضع المتكلم، ورغم اختلال التوازن في القامة بينها وبين من تحاورهن فإن النساء غالبًا ما يظهرن لها الاحترام، بل تجد البعض منهن تشد من ملايتها باحتشام عندما تلمح جوبحيّة من بعيد، في

حين كانت تتظاهر بشد ملايتها وإعادة تسويتها بالقرب من بعض الرجال لحاجة في نفسها تقضيها، وأكثرهن يحرصن على تقبيل يدها احترامًا لكبر سنّها وهيبة لها، كما لا يحول توسط حالها من أن تجد بعض نساء حافتنا اللاتي ينتمين للعائلات الغنية أو الميسورة الحال أو من ذوات القامة الفارعة والجمال الصارخ من الثرثرة معها بحيث يبدون كأنهن صديقات حميمات أو أنداد متحابون، وأحيانًا يلمح أولاد حافتنا لقاءاتها السريعة مع بعض النساء بما يشبه لقاء زوج من النمل وهن على عجل في نقل خبر اكتشاف مكان جديد للطعام.

وقد احتلت جوبحيّة هذه المكانة ليس فقط لكونها امرأة مسنة أو لشخصيتها المهذبة، وسمعة عائلتها الحسنة، بل أيضًا لأنها وبعض النساء من عائلتها يمارسن علاج المصابين بمرض جلدي يصيب الرأس ويطفح إلى الرقبة والظهر إذا اشتد وانتشر، ويسمى في الأوساط الشعبية (بالدبوة) وهو عبارة عن بثور في الرأس تظهر تحت الشعر سرعان ما تنفتح وتنقل المرض. الاعتقاد السائد في حافتنا أن أسرة آل بن جوبح هي المعنية بالعلاج، والمحتكرة لسره

ببركة من بركات الصالحين ودعواتهم. والمعالجات (الجوبحيّات) لا يتعاملن في العلاج بوساطة الدواء، بل تتم المعالجة بتلاوة آيات من القرآن الكريم، وبالبصق على رأس المريض في موضع المرض. وعندما يجرب البعض حظه في العلاج خارج العائلة يظل قلبه متوجسًا لهجره أصحاب العلاج الحقيقيين، وعندما يتأخر الدواء الحديث المتناول في تحقيق الشفاء خارج بيت آل بن جوبح يتأكد الناس بعد زيارتهم لهم وبعد حلول الشفاء وإن طال أمده بأن السر في المكان الأمين، والبعض يتعاطى الطريقتين للعلاج في آن واحد فمن جهة لا يريد الابتعاد عن الدواء الحديث، ومن جهة أخرى لا يميل إلى التهاون في بركة آل بن جوبح، ويفضل بعض أولاد حافتنا التكتم على الشفاء من المرض إذا تم خارج وصفة آل بن جوبح، فربما يجلب عليهم ذلك لعنة نكران فضل آل بن جوبح عند الطعن في بركتهم، ونكران سرهم.

ولم تكن أسرة آل بن جوبح وحدها في حافتنا من يقدم العلاج بالبركة والدعاء والبصاق بعيدًا عن الدواء، فقد وجدت عائلات

من السادة (الهاشميين)، والمشايخ (القرشيين)، ومشايخ العلم يمارسون هذه الوسيلة، مدعومين في ذلك باعتراف المجتمع بأنسابهم، وبالاحترام الشعبي لأهل العلم والصلاح منهم، أو من شاعت مقدرتهم على العلاج بالتوارث، وكان للسادة نصيب الأسد من هذا الاعتقاد ساعد على ذلك الكاريزما التي يتميز بها الفرد منهم لا سيما من تصدى للعلاج، فيلاحظ حرصه على لبس الثوب الأبيض النظيف الذي تفوح منه رائحة البخور والعطور مع التزين بشال أخضر اللون يوضع بعناية فوق الكتف، فضلًا عن الشهادة الشعبية لهم بالعلم أو العبادة، فيعزز ذلك من الإيحاء عند المريد في الشفاء وحلول البركة خاصة أنهم لا يقبلون - كآل بن جوبح - أجرًا على هذا الفعل التطوعي الخيري.

ولعقود عديدة ترسخت عند أولاد حافتنا قيم وسلوكيات توارثوها أبًا عن جد، من ذلك التمسك بالعادات المتوارثة لأن في قطعها عداوة كما يرددون دائمًا، لهذا تتداخل تلك العادات مع المعتقدات الراسخة في وجدانهم لتشكل مرجعيات ينطلقون بها

نحو الدواء والعلاج عند الأطباء الشعبيين الذين يمارسون العلاج بأنواع مشهورة من الأدوية وبوسائل قديمة تقليدية، ومن هؤلاء الخالة (رنقون) التي احتلت مكانها اللائق في عالم العلاج الشعبي التقليدي من ممارستها الطويلة في علاج مرض الهزال وفقدان الشهية عند الأطفال، وهو تخصصها الوحيد، ودائمًا ما تُسدى النصائح في حافتنا بزيارتها لمن أصيب طفله بذلك المرض.

تمارس (رنقون) العلاج بتدليك رقبة الطفل المريض وما حولها بطريقة شبه روتينية تسمى بـ(الترقيب)، تستخدم في هذه الطريقة زيت السمسم (سليط المعصرة) لتسهيل عملية الدعك، والاعتقاد السائد إن التدليك يحفز العروق الخاملة ويساعد على انسياب الدم فيها، وبالتالي الإحساس بالجوع، وهي وإن لم تكُ تأتي بحركات ماهرة يصعب تقليدها فإن الرّحال غالبًا ما تُشد إليها بغض النظر عن النتيجة المتوخاة، ولا يذكر مرض فقدان الشهية في حافتنا إلا وتذكر بالخير الخالة (رنقون).

لكن قبل أن يكبر الصغار في حافتنا لا بد أن يمروا بمرحلة الختان، وهي تجربة مؤلمة يتم إجراؤها في البيوت؛ لأن معظم الأهالي لا يحبذون الذهاب إلى المستشفى إلا في الحالات التي تخرج عن تخصصات أهل الخبرة. من ذلك ختان البنات الذي يكاد يسري على معظم بنات حافتنا وتقوم به نسوة جاهلات يمارسن هذه المهنة للارتزاق وبدون رقابة أو مساءلة، كما مارس عملية الختان للذكور رجال أميون بمعدات تقليدية وبدون تخدير (بنج) أو تعقيم، مما يجعل هذه العملية محفوفة بالمخاطر، وغالبًا ما تطول مدة التئام الجراحة، ومع هذا يردد أولاد حافتنا المقولة الشهيرة: «اللي تعرفه أفضل من اللي ما تعرفه».

أما حالات الولادة فتتم بسرية داخل البيوت، وهي أبعد الحالات في الوصول إلى المستشفيات، فقد كان ينظر لعملية الولادة بوصفها قدر النساء المكتوب، وعليهن مواجهته بالصبر بعيدًا عن الغرباء باستثناء الخبيرات من نساء العائلة ذاتها أو اللائي يحترفن عملية التوليد مقابل أجر معروف. وتعاني النساء المتعسرات من

الآلام القوية التي يمكن تجاوز أكثرها في المستشفى القريب، ولكن ضغط العادات، والخوف من الاتهام بالعجلة وعدم الصبر، والحياء من الانكشاف أمام الغرباء، تشكل عقبات تلاحق (الأم) المنكوبة مما يزيد من معاناتها واضطرارها وأهلها في أن تتم عملية الولادة الخطرة بعيدًا عن المستشفيات؛ لهذا تصف النساء في حافتنا عملية الولادة بأنها (نصف الموت)، وفي لحظات عصيبة تتداخل فيه صرخات الألم مع تلاوة القرآن، وتمتمات الدعاء، وزفرات الخوف، وآهات الرجاء، يأتي فرج الله القريب...

ولا تنتهي قصة العلاج الشعبي (العربي) في حافتنا عند جوبحيّة والختان، ورنقون، وبركة الصالحين ودعائهم، أو عند صاحب المعطارة وأعشابه البريّة، بل تمتد لتصل إلى شريحة صيادي السمك، ويدعم ذلك اعتقاد غامض على قدرتهم على علاج بعض الآلام، فالفتوى الشعبية الجاهزة في حالات الشد العضلي أو التواءات الأقدام هي: (دحقة) صياد سمك في مكان الألم. أما كيف تكونت الخبرة؟ وما هو مبعث هذا الاعتقاد؟ وإلى أي مدى جدواها؟

تساؤلات تجدها تتطاير في حافتنا، وغالبًا لا يجد سائلها الإجابات الشافية، والحقيقة المؤكدة في هذه الشريحة يكمن في العم (شتيح) فقدرته على علاج من يعاني الصداع القوي مشهودة، وتسمى هذه الحالة بـ(ضربة الشمس)، والوقت المناسب للعلاج هو بعد صلاة العصر، أما المكان فعند مستودعه (بسطته) الصغير الذي لا يزيد عرضه عن نصف متر، ولا يزيد ارتفاعه على المتر والنصف، بتجويف علوي محكم يمكن إغلاقه، وفيه يحفظ بضاعته الرئيسة؛ وهي قطع الحبار المجفف (العزيز).

يبدأ (شتيح) مراسيم العلاج بتدليك تصاعدي للرقبة إلى أن يصل إلى جبهة رأس المريض، ثم يشد الجبهة من جهتيها اليمنى واليسرى، وفي لحظة مناسبة يسحب بعمامته النتوء الجلدي الناجم عن الشد المزدوج فيحدث صوت يدل على بشائر العافية، ولا يتعاطى الصياد أي أجر، وحسبه الاعتراف بقدرته على العلاج، وشرف شدّ الرحال إليه، وعلى العموم يتعامل أولاد حافتنا بحذر زائد مع الغرباء من الصيادين...

ومهما قيل في هؤلاء المعالجين جميعًا فلهم مرضاهم والمريدون الواثقون في قدراتهم، ورغم إخفاق البعض منهم في وصف العلاج المناسب فإنهم أقل خطورة من أولئك المشعوذين الذين يفترضون أسباب المرض فقط في المس الشيطاني، أو العين الحاسدة، أو عمل السحر... وهؤلاء هم أحرص الناس على كسب المال واستدراج المغفلين، ويلاحظ أن أكثر الزبائن المترددين عليهم هم من النساء. ويمارس هؤلاء الدجل بتمائم مكتوبة، وطقوس خاصة، وطلبات غريبة؛ كأن يطلب من (الضحية) ذبح ديك ودفن رأسه في زاوية معينة من البيت وفي توقيت محدد. أو قص خصلات من شعر الزوج وإحراقها، أو تكسير عدد من بيض الدجاج على عتبات البيوت وغيرها من الوصفات الغريبة التي لا تنطلي على اللبيب، ورغم أن حيلة هؤلاء دائمًا واهية، وكيدهم قصير فإن أمل المغفلين من أهل حافتنا فيهم كبير.

وعلى العموم فإن صحة أولاد حافتنا هي الغالبة، وأن المرض هو العابر في حياتهم، كما أنهم لا يعرفون الأمراض الخبيثة المنتشرة

في المجتمعات الخارجية إلا ما ندر، ويربط البعض هذه الصحة بنوع الغذاء الطبيعي المتناول، وندرة استخدام الناس للمعلبات ذات المواد الحافظة، كما أن حياتهم البسيطة التي تتناسب مع إمكانياتهم وقدراتهم وربما أحلامهم جعلتهم أكثر رضًا بمعيشتهم وأقل حدة في الضغوط النفسية التي تتميز بها غالبًا المجتمعات الكبيرة والمزدحمة.

ومع هذا فإن رحلة أولاد حافتنا مع المرض والعلاج ظلت تتنقل في بحثها عن الشفاء بين الطب الشعبي والطب الحديث، ولكن الأمور مضت لصالح الجديد بدوافع كثيرة، وبدأت المعادلة عند الأغلبية تتغير رويدًا رويدًا لتصير «اسأل طبيب ولا تسأل مجرب»، ويبدو أن هذا التحول مرّ في حافتنا بمرحلة انتقالية قصيرة المدى ولكنها لافتة لا سيما عندما صارت بوابة المستشفى الرئيس في المدينة تمر طواعية عبر صيدلية النصر لصاحبها صالح التميمي.

تقع الصيدلية مقابل شقة (حبريش) وهي ضمن المستودعات الملحقة بمسجد بازرعة في الجهة الشمالية القريبة من منارة المسجد. العم صالح التميمي من المهاجرين الحضارمة القادمين من بلاد

المهجر الإفريقي الشرقي، اكتسب شهرته الكبيرة من نجاحه في صرف الدواء المناسب للمرضى بجرعات معقولة لا تنم عن طمع معين في بيع الدواء، كما أنه لا يستلم أجراً من استشارة الناس له. وبهذا ارتفعت مكانته في نظرهم إلى أن صار طبيب الحافة أكثر منه التاجر الذي يبيع لهم الدواء، ومن مميزات (الطبيب) صالح التميمي هو الاستماع الجيّد للمريض، وتركيز الأسئلة التشخيصية بهدوء، وبذكاء يشع من عينيه الواسعتين.

ومن أبرز الملاحظات على صدق تعامله مع الزبائن هو نصحه للمرضى بالذهاب إلى الطبيب المختص في الحالات المعقدة أو المشكوك فيها، وذلك لإجراء المزيد من الفحوصات، ومعرفة أسباب المرض، كما أنه لا يتهاون في صرف الأدوية لا سيما إذا عرف أن المريضة حامل، أو وجد الشك في حملها، مما زاد من احترام الناس وتقديرهم له. وإذا كان التميمي قد جنب الناس كثيرًا من العناء في الذهاب إلى الطبيب المتعلم أو المجرب بصرفه للدواء المناسب، فإنه نبه البعض منهم إلى تقبل فكرة اختيار العلاج عبر المستشفيات،

وهي مرحلة انتقالية يسيرة دفعت مع عوامل كثيرة أهل حافتنا باتجاه البحث عن الشفاء في عيادات الأطباء المتعلمين.

ورحلت رنقون ، ورحل شتيح ، ورحلت جوبحيّة ، وظلت رموزهم، بينما ازداد عدد الأطباء المتعلمين، وافتتحت الكثير من العيادات الخاصة والمتخصصة، وانتشرت المختبرات، لكن ما يزال أولاد حافتنا يبحثون عن العلاج في حافتنا، وفي ما وراء البحار، وما يزال البعض منهم يبيع تحويشة العمر، أو يقعون تحت طائلة الديون طلبًا للعافية، وما يزال بعضهم يموت في فراشه من إملاق، وبعضهم عاد القهقرى مفضلًا المجرب والخبير الشعبي على الطبيب المتعلم ليس بحسن اعتقاد فيهم هذه المرة - كما في الزمن القديم - وإنما لأن الطبيب لم يعد ذاك الطبيب، فقد صار السؤال عندهم بفلوس، وإجابتهم بفلوس، وأجرة عملياتهم ترهق النفوس، وأحيانًا تُطيح بالرؤوس...

الحذر ولا الشجاعة

بنزول محسوب تغوص (شمس) حافتنا في قاع المحيط الهندي ساحبة معها ماتبقى من نهار، وبهذه الحركة السرمدية تفسح المجال واسعًا أمام جحافل الظلام، ورغم المحاولات الناجحة للحد من كثافة السواد فإن قسمًا منه يظل مسيطرًا على بعض الزوايا وبين الأزقة، فيترك في ليالي حافتنا الجميلة هالة من الغموض، وشيئًا من الهواجس، وكثيرًا من التوجسات.

وقصة الخوف والقلق في حافاتنا متعددة الوجوه، ومتباينة المشاعر يرتبط البعض منها بالثقافة الشعبية المتوارثة، أو بالتنشئة الأسرية أو بالتجارب الشخصية والتصورات الخاصة، أو بالموقف من أنظمة الحكم. وعموما كان الإحساس بالأمان هو الظاهر على أولاد حافتنا ومع هذا تعتريهم بين الفينة والأخرى منغصات تعكر من صفاء أيامهم وتشوش على براءة حياتهم ، ويحرص الكبار في حافتنا على كبت مخاوفهم لأنهم يدركون أن بانتقالها إلى الصغار تتحول إلى رعب يصعب احتوائه كما أن بعض مخاوف الصغار لاتصل إلى

الكبار لإحساسهم بأنهم لن يجدو عندهم الإجابات الشافية، وبهذا صار الخوف مكوناً من مكونات تفاصيل حافتنا ينفعها حيناً من الدهر، ويضرها في أحايين كثيرة.

وعلى أية حال فإن حافتنا تشترك في مخاوفها مع بقية الناس فهي تخاف مثلهم من الموت، وتخاف من المرض، وتخاف من العين، وتخاف من المستقبل، وتخاف من الجن، وتخاف من شياطين النهار، وعفاريت الليل. لكنها وإن اشتركت معهم في هذه المخاوف فإنها لها تفاصيلها الخاصة المسكونة في أعماق أبنائها، والمعبر عنها بنبضات قلوبهم المسالمة.

بعد مغادرة السلاطين القعيطيين مدينة المكلا وسقوط سلطنتهم، تداخلت المشاعر بين المؤيدين الآملين في القادم الجديد خيرًا، وهم كثر، وبين الرافضين الذين يرون (أن السبولة خير من مقلع) وبين هؤلاء وهؤلاء آثر البعض التريث وانتظار ما تخفيه الأيام، وما تكنه السنون. كان الحَكم (علي بن صالح بن ثابت النهدي) - وهو من كبار رؤساء القبائل في حضرموت- واحداً من الذين شعروا بأن لا مكان لهم في العهد الثوري الجديد وأنهم محسوبون على النظام

القديم؛ بيد أنه لم تبلغ به الظنون حد الإحساس بالخطر على حياته، لاسيما وأنه ينتمي إلى محافظة تغلب على أهلها ثقافة التسامح ولا تميل إلى العنف مما جعله يستأنف حياته العادية في أمان الله وفي ذمة حضرموت وضميرها.

يشاهد أولاد حافتنا (الحَكم علي بن صالح)وهو يغادر حافتنا في حركته اليومية المعتادة دون حراسه شخصية ثم يعود إلى(بيته) كما يعود الناس، وغالبًا ما يكون لابسًا ثوبًا أبيض يردفه بكوت أسود اللون، ويمسك بيده أو تحت إبطه (صولجان الحُكم) وهي عصا متوسطة الطول تضفي عليه هالة من الوقار، وربما الهيبة.

ولأسباب غير معروفة للكثيرين اختفى الحَكم علي بن صالح قسراً، كانت الأخبار المشابهة لحالته تتناثر هنا وهناك لم يسلم منها (رجعي بائد) أو (تقدمي ثائر) فسكتت حافتنا خوفًا، وريبةً، وذهولًا. لكنها كانت تتساءل في سرها وفي غياب الشاهد والشهيد عن حقيقة الذنب الذي أخذ به والجريمة التي انتزع بسببها. وحتى بعد أن أعاد الثوار الاعتبار للمحاكم وسلطة القانون ظلت حافتنا

تتوجس خيفة من أهل الحكم ومن أن يحضروا واختارت نعوتها الخاصة بهم لاسيما لرجال الأمن السريين الذين لقبت الفرد منهم بـــ (الصهدود) وهي: قطعة الزجاج المكسورة التي تدمي من احتك بها ولهذه عندما يحضر هؤلاء في مجلس من المجالس لا يُسمع إلا حديث السمك، وأنواعه المنافسات الرياضية، وأبطال السينما، وحكايات العشاق ....إلخ (ولسانك حصانك إن صنته صانك).

ورغم محدودية الإجراءات الثورية العنيفة في عهد الثوار من حيث عدد الضحايا والمدة الزمنية فإن آثارها الأليمة ظلت كامنة في وجدان الناس؛ لهذا حرصت حافتنا في إظهار ولاءها للثوار بتلبية دعوة التظاهر والمبادرات(التطوعية)وكذا بتأييدها للمناضلين وقراراتهم الثورية حتى وإن أربك البعض منها حياتهم الاقتصادية وشطحت بأفكارها الغريبة، لهذا تسمعهم يرددون عبارات كثيرة منها :(من خاف سلم) و(باب يأتي منه الريح سده واستريح) وغيرها من الأمثال والحكم التي تُستحضر من قاموس الثقافة الشعبية في مثل هذه المواقف للتذكير بالعواقب الوخيمة للخطوات غير

المحسوبة، وللتأكيد على جدوى التأني والصبر على الأذى، وعلى العموم هذه الاحتياطات جنبت حافتنا الكثير من المكاره. على أنه من الإنصاف القول: إن الناس في حافتنا وعلى الرغم من بعض التوجسات كانوا يشعرون بأنواع من الأمان على حالهم ومالهم طالما هم ملتزمون بقوانين الثوار ما يروق لهم منها وما لا يروق.

وبينما الكبار في حافتنا غارقون في مشاكل الحياة يصارعون من أجل تأمين لقمة العيش لأسرهم كان للصغار هواجسهم الخاصة التي تظهر عند انغماسهم في عوالمهم الطفولية فتتداخل لديهم المشاعر بحيث يصعب أحيانا التمييز بينها، وبخاصة ممّا يسمعونه من حكايات (آل صور) الغامضين - وقصص الغاوي ومكايده، وحِيل الجنية أم السلاسل ومسها المخيف..

وفي المتخيل الشعبي المتوارث احتل آل صور مكانهم المرعب في الحكايات الأسطورية بحسب ما خطط له الأجداد الذين هدفوا - كما يبدو- إلى كبح اندفاع الأطفال والمراهقين نحو البحر وتأمين سلامتهم، وآل صور - كما في الأسطورة - هم : أولئك القراصنة

الذين يجوبون السواحل القريبة من اليابسة ويقومون بخطف الأولاد بعد قتلهم بطريقة تشبه أسلوب مصاصي الدماء، وتتنوع تفاصيل عواقب القرصنة في مخيلة أولاد حافتنا ومدى اقتناعهم بها، لكنها وهي تحقق غايتها في التنبيه من مخاطر بالبحر، جعلتهم يلتقون عند نقطة قبول النصيحة التي تحث على الحذر والأخذ بالحيطة وعدم الاندفاع (ومن دخل بحر ما بلّد وقايس قياسه شله الطوفان).

وإذا ما أَمِنَ أولاد حافتنا من مخاطر البحار فإن عليهم اليقظة من عدو خبيث يتشكل بأشكال متنوعة يجر ضحيته إلى عوالم مجهولة حيث مملكة الجان ومدينتهم القابعة في الجبال البعيدة أو في أعماق المحيطات أو في الخرائب المهملة، وأولاد حافتنا يذكرون ذلك الغاوي الذي ظهر لهم على شكل طائر جميل أشبه بالهدهد وكيف أنه في البداية مكث غير بعيد عنهم فظنوا أنها فرصة سانحة للقبض عليه، لكنهم كلما اقتربوا منه ابتعد قليلاً تاركاً أمامهم مساحة من الأمل، وبعد محاولات عديدة وجدوا أنفسهم بالقرب من قمة الجبل وعلى مسافة بعيدة من نقطة انطلاقتهم فأخذوا بالتراجع لكن الهدهد لم ييأس إذ قام بحيلة جديدة

بالتظاهر بالتعب والإنهاك، وهمّ البعض باستئناف المطاردة ولكن صيحة أحدهم التنبيهية جعلتهم يتراجعون قانعين بالسلامة.

ويقول أولاد حافتنا إن الغاوي قد يظهر في شكل إشارة ضوئية في ليلة ليلاء أوفي صورة امرأة جميلة تأخذ الألباب أو في صورة صديق يتظاهر بالنصيحة والصلاح لهذا كانت وما تزال معركة حافتنا مستمرة مع (الغاوي) المتقمص لبوس البراءة والجمال. وهو قد ينجح مع البعض في مساعيه الماكرة، لكنه يفشل مع الأغلبية التي تتصرف وفقا لأسلوب التعاطي مع المشكلات بمنهجية الحذر لا بمنطق الشجاعة لهذا تتكشف خططه، وتتهاوى حباله الواهية.

أما أم السلاسل وما أدراك ما أم السلاسل؟ فهي تلك الجنية العابثة بنبضات قلوب أولاد حافتنا فما أن تُذكر إلا وتتراءى في أذهانهم صور متنوعة لشكلها المخيف الشبيه بالعجوز الشمطاء ذات الأنياب البارزة، والعيون الحمراء، والوجه المتهجم، والأظافر الكبيرة الممسكة بسلاسلها للقاء ضحيتها بشغف وغيظ لانهاية له، ومما يزيد الرعب في قلوب أولاد حافتنا أن أم السلال لا مكان لها

محدود وإن كان الشائع عندهم أنها تفضل الزوايا المظلمة حتى صارت أم السلاسل والأركان المظلمة وجهان لعملة واحدة والويل كل الويل لمن وقع في شراكها لاسيما من يفضل المشي في الليل وحيدًا، ويعزز من سطوة أم السلاسل تلك الأخبار المنتشرة التي تتحدث عن حكاياتها مع ضحاياها وكيف تمكنت بإشارات يسيرة من خلع القلوب، وصك الركب، وقشعريرة الأبدان، وفي فقدان السيطرة..، وأحيانا تروج بعض الروايات على أن أم السلال ليس من أهدافها إلا أولئك الأشرار العاقون لوالديهم أو المستهترون في حياتهم لكن هذه الأقاويل الباعثة على الطمأنينة لم تهز إلا القليل من جبروتها فهي ما تزال تبث الرعب في أولاد حافتنا فما أن يبلغ الحلم جيل منهم حتى تتجه بسلاسلها إلى الجيل الذي يليه.

وفي رحلة الحياة وتحدياتها ولعقود عديدة مضت حافتنا مع مخاوفها في شد وجذب تدفعها رغبة أكيدة في الحياة الحرة الكريمة المتوازنة، وفي أثناء هذه الرحلة اصطدمت بصخور وقابلت زوابع متنوعة لكنها واجهت ذلك بحكمة وصبر كانت بوصلتها التي تهتدي بها

حِكم الأجداد وكانت كثيرا ما تردد من تلك الحِكم :(الحذر ولا الشجاعة) وعزا بعض الناس إلى أن الإمعان في مثل هذه الأقاويل أدى مع أسباب أخرى إلى الحد من حركة الناس وفي تثبيط الكثير من العزائم. أما العارفون ببواطن الأمور فيقولون إن تلك الحِكم حافظت على تحلي الناس بفضيلة الصبر على مكاره الحياة، وإن شعلة الأمل الكامنة في النفوس جعلت الناس على يقين من الوصول إلى الشواطئ الآمنة بصرف النظر عن تعثرات الطريق، ولكن دوام الحال من المحال فعندما وصلت الرحلة بحافتنا إلى محطات غريبة المرافئ مجهولة الأمواج عقيمة الأمل نهض شبابها للوصول بها إلى جادة الطريق، ولهذا ركبوا الصعاب بعد أن تخلصوا من السلاسل والأساطير، وأعباء التاريخ، وبما رسخ في أعماقهم من تراث أسلافهم، وبأدوات عصرهم التي يعرفونها اجتهدوا لكي تمضي السفينة إلى بر الأمان، وفي مساعيهم المباركة عملوا على تحريك بعض تفاصيل البوصلة وبهمة غير متوقعة صنعوا ثقافتهم الخاصة وأطروحاتهم الجديدة التي أعطت للشجاعة مكانة متقدمة لكنهم أبقوا على الحذر الذي لا يمنع الأخذ به من حُكم القدر..

دكة بوبك

هبوطنا إلى (دكة بوبك) الواقعة في الشارع الثاني بحي برع السدة بالمكلا وتجاوزنا لثلاثة شوارع أفقية يعني أشياء كثيرة؛ منها أن أولاد الحافة (الحارة) شبوا عن الطوق، وأنهم وصلوا إلى سنوات من العمر تسمح لهم بالانتقال السلس من مرحلة المراقبة العائلية عن كثب إلى عالم أوسع من حرية الحركة، وفي بناء العلاقات الاجتماعية الجديدة. ولم تكن (دكة بوبك) غريبة عن أولاد حافتنا فهي تقع على يمينهم في أثناء صعودهم إلى شارعهم الخامس حيث أماكن لهوهم وليالي سمرهم.

تقع دكة بوبك في أقصى الركن الجنوبي الغربي من بيت (أبوبكر صالح الكلدي)، يجاور هذا البيت جنوبًا بيت (أحمد بن كدة الكثيري)، وغربًا بيت (عبدالقادر أحمد بافقيه)، وأسفل بيت بن كدة ومقابل (دكة بوبك) يقع دكان الشاعر (صالح عبدالرحمن المفلحي)، وخلفه يقع بيت الوزير (صالح منصر السييلي).

دكة بوبك في الأصل تتكون من بضعة سلالم (رقد) توصل لدكان الأقمشة الذي يملكه صاحب البيت (أبوبكر الكلدي)، وتتميز باتساع عرضها؛ إذ تسمح بالجلوس المريح لعدد كبير من الأصدقاء. وهي تتوسط المسافة بين المسجدين مع اقتراب يحسب بالأمتار لصالح مسجد بازرعة. يكون مسجد مشهور عن يسار الجالسين عليها بينما يكون مسجد بازرعة عن يمينهم.

وقد شاب التسمية بعض الغموض، فبعد أعوام من الجلوس في هذه الدكة ودخول أولاد حافتنا في علاقات خاصة مع صاحبها اتضح لهم أن اسم بوبك ما هو إلا لقب لصديقهم الكبير (أبوبكر الكلدي)، وأن لفظة (بوبك) تطلق اختصارًا لاسمه لسهولة نطقها، ثم صارت لفظة شائعة ترسخت رسوخ (دكته) الشهيرة الملاصقة لدكانه.

التحم أولاد حافتنا بعد جلوسهم في هذه (الدكة) بمجتمع الكبار، فعلى الصعيد الرياضي شكلوا الصف الثاني (الأشبال) في فريق الحافة (المحلة)، ثم صاروا من لاعبيه الأساسيين، كما أن محيط هذه (الدكة) ممتلئ بالنشاط والحركة الاقتصادية، فبالقرب منها تقع

مقهى (كلبو) الشعبية، المشهورة بصنع الشاي ذي الجودة العالية على جمر النار، ويكون مكان الاحتساء في الغالب (الدكك) المجاورة أو المقاعد الصغيرة التي بالكاد ترفع جالسها من تراب الأرض، وملاصق بالمقهى الشعبية التعاونية الزراعية لبيع الخضار والفواكه وهي قصة تحتاج إلى وقفات.

لا يحتكر أولاد حافتنا الجلوس في هذه (الدكة)، فهناك متسع للجالسين العابرين، وهؤلاء أنواع؛ منهم من يجلس جلوس الكرام، ومنهم من يجعل من (الدكة) مكانًا للنظر الذي يتبعه السلام ثم اللقاء، وهم أصناف؛ أغلبيتهم لا يسكنون حافتنا. أما من ينافسوننا الجلوس عليها إلى ساعات من كل يوم فهم رجال حافتنا أو من أصدقائهم المقربين.

ولأن صديقنا الكبير (بوبك) شخصية فيها من الطرافة والألفة الشيء الكثير، فقد ساعد ذلك على أن يكون دكانه و(دكته) مكانًا مناسبًا للجلوس والثرثرة، لهذا تجاورنا مع شخصيات متعددة الأهواء والنفسيات، والحقيقة كان هناك قلة منهم من فتح حوارًا مع أولاد حافتنا الفضوليين والمزعجين أحيانًا.

من الشخصيات البارزة التي زاحمتنا الجلوس على دكة بوبك الأستاذ الجار صالح منصر السيبلي وزير الداخلية في جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وقد كان أولاد حافتنا يدركون خطورة منصب الضيف الجديد وما يحيط به من غموض وحكايات، بيد أن استغرابهم هذا كان يقابله استغراب صامت من الضيف للكائنات المجاورة له في (الدكة). جارنا الوزير يجلس بنوع لافت من الوقار نلاحظه في لفتاته أو في طريقة احتسائه لشاهي مقهانا الشعبي، وكما يأتي هذا الضيف إلى (دكتنا) فجأة يختفي عنها فجأة.

كما جلس على (دكة بوبك) أيضًا شخصيات بارزة لم نتعرف عليها أو نشاهدها إلا بعد هبوطنا الاختياري إليها واحتلالنا لها، من هؤلاء كبير النجّارين الشيخ عبدالله سلمان بن دهري، والمقاول علي الجرو، والشاعر عبدالرحمن باعمر، والمهندس علوي المفلحي، والمحاسب سالم صفي، والمقاول سعيد بهيان، والسفير محمد مديحج، والشخصية الاجتماعية الظريفة أحمد عبدالله باوزير (بوشيخ)، وبعض تجار المدينة.

وقد دخل أولاد حافتنا في علاقات متنوعة مع المقاول والشاعر الشعبي سعيد بهيان، والعم بوشيخ، كانت العلاقة مع المقاول بهيان تقوم على تعاون أولاد حافتنا في مقالبه الخاصة التي تستهويه؛ فقد كان (يرحمه الله) – على الرغم من أنه وقتئذ على مشارف السبعين أو تجاوزها– رجلًا مرحًا وشخصية اجتماعية لها مكانتها في مدينة المكلا، ولا سيما حي برع السدة، وهو يستغل أولاد حافتنا بعطاءات سخية، ويختارهم حسب نوعية المقلب المدبر لضحاياه، فمثلًا يكلف البعض بأخذ (سيكل ناري) أي دراجة نارية خاصة بأحد (أصدقائه) إلى مكان بعيد، وعندما تحين ساعة معرفة الضحية بسرقة (سيكله) يمارس المقاول بهيان متعته بتهدئة الضحية ويقوم ناصحًا وحكيمًا مرددًا القول الشائع «في المال ولا في الحال» إلى درجة معينة تكون قد خارت أعصاب ضحيته، ثم يأتي من يخبر الضحية بأن سيكله قد عثر عليه، وبعد أن تظهر الغبطة على ملامح الضحية لا ينسى تقديم الشكر لبهيان على ما أبداه من حرص على عودة ضالته. ويعود بهيان إلى (دكة بوبك) يبحث فيها عن مقلب جديد قد يصل إلى الحرمان

من الغداء، فقد طلب بهيان من أحد أولاد حافتنا الصعود إلى بيت مجاور (للدكة) ليطلب من أهله في غياب رب البيت وباسم رب البيت استرجاع لحم الغداء لجلب آخر... ويعود صاحب البيت بعد الصلاة والجوع بلغ منه مبلغًا ويفاجأ بالخبر وبعد تحقيقات يتضح له الفاعل الحقيقي... وينتشر خبر المقلب في (دكة بوبك) ومحيطها ويتحول إلى مادة من المرح، وقد ينسى الناس ولكن بهيان يعود ويجلس في (دكة بوبك) وتظل حافتنا في انتظار دائم لقصة جديدة.

وإذا اتخذت علاقة أولاد حافتنا مع المقاول بهيان منحى يقوم على أساس الحوار بمسافات معينة، فإن هناك علاقة خاصة جمعتهم فيها (دكة بوبك) مع الشخصية المكلاوية الظريفة (بوشيخ) وكان منظر تحلقهم أمامه مشهدًا مألوفًا. يعمل (بوشيخ) بائعًا متجولًا وهو في الأصل قريب العهد بحافتنا، يمتاز (بوشيخ) بصوته ذي البحة المميزة، ولكنه لا يبخل على المتحلقين حوله برواية مغامراته وطرائفه وحكاياته وأيامه في الهند ووصف خيرها الوفير... يحكي بوشيخ مما يحكي أن هناك سيارات شحن (حماليات) تحملهم وهي

مليئة بأقراص الخبز (البراوطة)، ومنها يقذفون إلى أحواض كبيرة (جوابي) مليئة بشربة الخضار (الصانة)، ويسأل بعض أولاد حافتنا لماذا غادرت الهند وفيها الخير الذي تقول عليه؟ ولكن عند بوشيخ دائمًا الجواب ويسوغ خروجه من الهند بشجار جرى بينه وبين أحد الهنود تمكن بعده (بوشيخ) من إدخال يده إلى نصفها في عين غريمه الهندي، ويمر أحد العابرين ويسأل (بوشيخ) عن أحوال الدنيا؟ ويرد بوشيخ بسرعة وهل أنت من أهل الآخرة؟ ولا تنتهي حكايات (بوشيخ) ومغامراته طالما هي منسوجة من روحه المرحة، ولها جمهورها من المراهقين المتابعين (الفاضيين).

وقد فتحت العلاقة بين أولاد حارتنا وصاحب (الدكة) أبوابًا جديدة تجاوزت الجلوس البريء فيها وصار أمرًا عاديًا أن يكلف بعضهم برسالة إلى تاجر ما، أو المساعدة في أمر من أمور التجارة، وتسمح لنا هذه المصالح بالجلوس داخل دكانه ومشاهدة معاملاته التجارية مع النساء، وقد كان -رحمه الله- يتعامل مع رجاله الصغار بوصفهم ناضجين من خلال بعض التعليقات السريعة التي يقولها

وندركها في حينه. كما أتاحت هذه العلاقة الفرصة في معرفة جوانب من حياته وأسراره، وهو في واقع الحال كتاب مفتوح سهل المعشر خفيف الدم، ولكن تغلب عليه أحيانًا عقلية التاجر ولا سيما بعد أن وسّع من أعماله، وصار وكيلًا لمصنع المياه الغازية في عدن.

وكما فتح له هذا التوسع أبواباً للرزق فتح لأولاد حارتنا أيضًا بابًا للرزق من خلال الاتفاق على إفراغ حمولة السيارات في مخازنه، وغالبًا ما تكون (دكته) مكانًا للاتفاق على الصفقة، وأحيانًا يفشل الاتفاق ويجلب من مكان بعيد من يقبل العرض الرخيص، بالنسبة لأولاد حافتنا فإن العمل يسمح لهم بتوسع صرفياتهم الخاصة، وليس تلبية لالتزامات عائلية.

غادر جيلنا (دكة بوبك) كما غادرها الجيل الذي قبلنا، ثم حكم قانون الحياة بمغادرة (بوبك) من بيته ودكانه و(دكته) إلى غير رجعة، لكن ما تزال (دكته) قائمة تشهد على أيامه وتجارته، وما يزال أحفاده يمرحون فيها مؤكدين استمراريته، وما يزال أولاد حافتنا من شارعنا الخامس جيلاً بعد جيل إليها يهبطون.

حافتنا ... أسرار وخفايا

بعد تسلقها الجبال الشاهقة وتحت ستار الليل تعود الشمس من جديد، وتصمت الديوك، وفي المقاهي الشعبية المكلاوية يُسمع أصوات عُمال البناء في مدة احتسائهم الشاي المخلوط بالحليب قبل انصرافهم إلى أماكن عملهم. في هذه الأثناء غالبًا ما يكون عبد نصيب في قمة نشاطه وحيويته أو هكذا يبدو للناظرين فهو يخص تلك اللحظات المبكرة في تنظيف دكانه وترتيب بضائعه قبل أن يستعد لإطلاق أول عملية (تجارية) من حافتنا إلى وسط سوق المدينة، وهي تجهيز عربة الماء البارد (القاري) بالثلج والماء وذلك في خزان يحفظ برودة الماء بمساندة قطع الثلج لمدة تزيد عن الثلاث ساعات وهو وقت كاف لتصريف (البضاعة) في هذه المدينة الساحلية المعروفة برطوبة صيفها وسخونته.كما يقوم تاجرنا بتجهيز مشروب الليمون في قوارير زجاجية تغطى فتحتها بقطعة من الفلين.ثم يعيد تعبئة قوالب الثلج بالماء وتحضيره للبيع بعد اكتمال صلابته في زمن كانت

الأواني الفخارية مثل (الكوز) و(الجحلة) سيدَيْ الماء البارد في البيوت الحضرمية الساحلية، وإمعانًا في استغلال تلك اللحظات، وفي غياب تدفق الزبائن يقوم تاجرنا أيضًا بتجهيز الأكياس الورقية المعمولة من أكياس الاسمنت الفارغة التي يوفرها له بعض الصبية مقابل مبلغ زهيد من المال أو ما يقوم بجمعه من قارعة الطريق بعد تخليصه من الشوائب، وغالبًا ما تكون الأكياس (المصنوعة) متفاوتة الحجم بحيث يستفاد منها حسب نوع السلعة المطلوبة.

ورغم ما اشتهرت به حافتنا من الهدوء والسكينة وعفوية أهلها ونقاء سريرتهم فإنها تبدو أحيانًا كالبئر العميقة القادرة على التهام الأصوات مهما أُلقي فيها من مقذوفات مهرولة من على فوهة حفرتها، وبينما بعض الأسرار والخفايا في حافتنا تموت مع أصحابها فإن بعضها يبرز على غير رضا أهلها، ومنها ما يتم السيطرة عليه، وعلى توقيت إعلانه، وتختلف نوعية الأسرار بين السار والضار وبين ما هو مثير للفخر والفرح، وبين ما هو مجلب للغم والترح، وفي حافتنا تجد من الفضوليات والفضوليين ممن يسعون لمعرفة

بعض التفاصيل عن البيوت باستدراج الأطفال بتساؤلات فيها من العمومية ما فيها بحيث تحمل معانيَ كثيرةً، وهذا الغموض المتعمد يعكس حالة التوجس عند الفضوليين من وصول تساؤلاتهم ذات الطابع المباشر إلى ذوي الأطفال وهو أمر غير محمود في حافتنا، ويقلل من مكانة السائل الفضولي، ويدل على هيافته، وربما خسته.

ومن الأسرار المسيطر عليها وعلى توقيتها - والتي غالباً ما تُشهر بإطلاق الزغاريد - تلك الأخبار المرتبطة بالفرح والسعادة مثل بشرى الولادة قبل أن تأتي النساء المهنيّات من كل فجٍ عميق، وخبر إشهار الخطوبة الذي يهزُ قلوب عذارى حافتنا، وإعلان نبأ وصول المسافرين وما يعنيه من شوق عميق ودموع صادقة، ويسمى البيت المقصود بالزيارة: بيت (الشمّة). و ترتبط قصة الحرص على الكتمان بحيثيات كثيرة منها ما له علاقة بالخوف من الحاسد المتربص، أو من العين الظمآنة كما يقولون، وأحيانًا من الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس وعلى أية حال فإن الإعلان عن تلك الأخبار رغم ما تظهره من عنصر المفاجأة فإن التعاطي معها يتسم

بالمرونة والتفهم النابع من النهج المشترك والمتعارف عليه في مثل تلك المناسبات، والبيوت - كما يردد في حافتنا- أسرار.

(وعلى سبيل المثال) يدخل المرض النفسي ضمن الأسرار العميقة التي يحاول فيها أهل المريض إخفاءَه قدر استطاعتهم، بالرغم من محدودية مثل هذه الحالات - فإن حافتنا غالبًا لا تعترف بالمريض النفسي وعندهم تصنيف يكاد أن يكون صارمًا؛ (فالآدمي) إما سليم العقل وإما مجنون ولا مكان لأنصاف الحالات؛ لهذا تجدهم إذا لاحظوا أي تصرفات في السلوك أو ارتباك في الشخصية خارج عن المألوف يقللون من حركة المريض ويحرصون على مراقبته. أما الحالات المتقدمة حسب تقديرهم فيجهزون فيها على (الضحية) بحبسه في غرفة محكمة وأحيانًا بربطه بالسلاسل ولا يسمح بزيارته إلا للمقربين.

ورغم الحرص على إحكام القبضة على المريض(عوض) فقد تمكن في يوم من الأيام من اختراق الحواجز المفروضة عليه، وهام في المدينة، وكالحمر المستنفرة انتشر أقاربه للبحث عنه في أرجائها إلى أن تمكنوا من القبض عليه وإعادته إلى حافتنا بيد أن صرخات

المقاومة التي يرددها في المكان جعلت الخبر – وربما الفضيحة – مشاعًا للصغار والكبار وفي مثل هذه الحالات تقدم حافتنا واجب المساعدة والمؤازرة تلقائيًا ويكون النصيب الأبرز في المساعدة خارج عائلة المريض من نصيب (عبد نصيب) وتشاهد حافتنا عن بكرة أبيها هذا الحدث بمشاعر مختلفة من الأسى والفضول والخوف وعندما يتجمهر الناس أمام دكان عبد نصيب سواء ممن فاتهم المشهد الأليم، أو أولئك الباحثون عن التفاصيل لما حدث داخل الغرف المغلقة لا يجدون عنده ما يشبع فضولهم خلا ترديده : (الحمد لله الحمد لله) لكنهم يلاحظون معاني الشفقة، وعلامات الحزن ترتسم بوضوح على وجهه البشوش.

وقصة عوض لم تنته بعد الزج به في غرفة سحيقة إذ شاهده الناس مرة أخرى وقد انقلب حاله غير الحال مستأنفًا حياته الطبيعية، وفي مثل هذه التطورات تمارس حافتنا هوايتها في البحث عن السر وما أخفى، ومما عرف من الأخبار المحزنة المؤكدة أن زوجة عوض وابنته الصغيرة غادرا البيت دون رجعة أما أسباب عودة العافية لعوض

فقد تضاربت الروايات؛ فيقال إن هناك من دل أسرته على مكان السحر ونوعه الذي عمل له، وتم إبطاله، وهناك من يعزو الأمر إلى ذلك الشيخ الذي تمكن من إخراج العفريت من تحت أقدامه ورواية أخرى تقول – وهي رواية بعض مثقفي حافتنا- إن المريض عوض في الأصل غير مجنون وأنه مصاب بحالة عصبية حادة جراء ضغوطات كبيرة واجهته لم يستطع أهله فهمها لهذا عاملوه بمزيد من الضغط والتضييق، وأنه بمرور الوقت استقرت حالته لا أكثر ولا أقل، ولا تكتفي حافتنا في الخوض في أسباب العافية المفاجئة بل نجد الفضوليين منها يطلقون العنان لتفسيراتهم، وينسجون من خيالاتهم ما يجدونه يلقى قبولًا في آذان مستمعيهم ومما يقولونه: إن عوض كان غاويًا للرقص الشعبي، وإنه في ليلة من الليالي سمع أناسا يتسامرون ويرقصون فذهب يشاركهم سمرهم وبعد برهة اكتشف أنهم نفرٌ من الجن ففقد من الخوف عقله. بينما يشطح آخرون ويعزون الحالة إلى ساحرات جزيرة سقطرى وأنه عندما كان مجندًا في تلك الجزيرة شغفت به إحداهن حبًا وحذرته من مغبة مغادرة الجزيرة، ولهذا أصابه ما أصابه .

وعلى أية حال ظل عوض في حالة عناية خاصة من أسرته، ولمدة طويلة لا يغادر منزله إلا بمرافق من أهله وذلك خوفا من تحرش الصبية به ولاسيما أن قصته معروفة للجميع، ومما ساعد على استقراره النفسي تعاطف حافتنا مع مأساته وتعاملها المرن معه دون الاقتراب من الماضي القريب والبعيد. ولكن قصته القديمة استمرت تلاحقه وتنغص أيامه ولياليه، بل وتهز أعماق أعماقه لاسيما عندما يتعلق بابنته التي يسمع بأنها تتجنب مقابلته أو ربما تخجل منه لكنه وبتضحية الآباء ومشاعرهم الصادقة يقبض على شغاف قلبه ويقبل ألا يراها على أن يستشف من وجنتيها مشاعر الخوف أو يرى في عينيها علامات التوجس كما أنه وإن قبل كل شيء وتحمله فإنه لا يستطيع أن يتحمل مصيبة الشك في صدق مشاعره الجارفة نحوها، وحقيقة حاجته الملحة إليها ونبل سعيه لبلوغ أمنيته الأخيرة في هذه الدنيا بأن يختفي في براءتها ويذوب في أحلامها التي هي أحلامه.

ويحتل المريض (جمعان) حالة خاصة فهو من صنف المرضى الذين يتعايشون مع مجتمعهم بالمسافة التي لا تجعلهم عرضة للسخرية

أو هدفا من أهداف المشاغبين. هاجر جمعان بما يشبه الهروب من أحواله غير المستقرة رغم أن حالة عائلته ليست بالسوء التي عليها زملاؤه من المهاجرين الحالمين وما أكثرهم في تلك الأيام ، على أن العارفين ببواطن الأمور يدركون أسرار الطفولة القاسية التي مر بها فترتيبه الخامس في أسرته بعد أربع بنات رزق بهن والده، لهذا وجوده بالنسبة لرجل قدم من بوادي حضرموت واضطر للعيش في مدينة المكلا كان من الأماني العزيزة والغالية عليه، ولهذا هُيِّئَ جمعان منذ الصغر بأن يكون الوريث والسند لحفظ اسم العائلة وليكون مصدر فخرها، وفي مثل حالة جمعان غالبًا ما تكون المعاملة للولد القادم بعد ثلة من الشقيقات بأسلوبين الأول: الإفراط في العناية به وتدليله وفي مثل هذه الحالة ينتهي المطاف في غالب الأحيان بالفشل في الحياة لأسباب لا مجال لذكرها والأسلوب الثاني: – ولعله من سوء حظ جمعان – يركز على التربية الصارمة التي تحمل الطفل فوق قدراته وتكلفه بما لا يطاق وهي ما حظي به جمعان فقد كان عليه أن يكون رجلًا في الزمان غير المناسب وعندما يعجز عن

تحقيق الآمال المعلقة عليه ظن الوالد أن الوسيلة المثلى للوصول إلى هذه الغايات هو المزيد من العقاب، وركام من التعليمات والنصائح، وعندما لا يحتمل جمعان الأذى أو يبلغ به الحال مبلغًا يفوق قدراته على الاحتمال يبحث عن الأمان خارج البيت، ويهيم أحيانًا في سفوح الجبال ولاسيما عندما يشعر أن مصيره هو العقاب المؤكد لأمر لم يستطع إنجازه، وإذا اضطر للعودة بعد أن يرخي الليل سدوله، يعود إلى البيت خائفًا وأحيانًا يؤخذ عنوة وفي الحالتين يعاقب عقابا أليمًا في اعتقاد واهم أن في ذلك الدواء الشافي والحل الناجز.

وهكذا كانت أزمة جمعان الكبرى فكان عليه تجرع كأس الرجولة دفعة واحدة في حين أن أحشاءه الغضة لا تقوى ولا تستجيب؛ لهذا يهيم في الجبال ويغيب أحيانا بالأيام ثم يضطر للعودة متجرعًا في كل مرة كأس الرجولة في قصة طويلة مليئة بالمرارة. بيد أن الأقدار خففت بعضا من معاناته وذلك بعد تواتر الذكور من أشقائه وبعد أن لاحت عند بعضهم علامات النباهة وظهروا كوريث محتمل وربما مشرف للعائلة ، ثم إن والد جمعان أيقن أن أسلوبه العتيق لا

يصنع إلا أشباه الرجال لكن تلك المعرفة بالنسبة لجمعان تأخرت عن أوانها بمسافات تجاوزت مرحلة الندم.

في بلاد الغربة شعر جمعان بالأمان فهو لن يخاف من الليل ولن يخاف من الخطأ ولن يجلب إلى البيت عنوة لهذا ساح في أرض الغربة خمسة عشر عامًا وهي موازية لعمره الذي قضاه في وطنه ومدينته. وفد أثار تعمده الابتعاد عن معارفه وأبناء مدينته هالة من الغموض حول شخصيته، وكانت تطرح كل الاحتمالات، ومما يبعث الطمأنينة في صدر والديه تلك الرسل التي كان يبعثها والده بين فينة وأخرى لتقصي أحواله .كان والد جمعان يدرك في أعماقه أن ابنه أراد بهذه الغيبة الطويلة أن يغسل سنينه العجاف بسنين جديدة يعوض فيها معاناته، بيد أنه ظل ينازع خواطر تنتابه وهي أن ابنه ربما يعاقبه على معاملته له وقسوته عليه عندما كان يظن - غير آثم - أن أسلوبه في التربية والتنشئة هما المدخل للحياة السعيدة والآمنة.

ولا تقوى أم جمعان أمام شخصية بعلها القوية أن تعبر عن كل ما يجيش في صدرها بيد أن ما يصلها من أخبار عن سلامته غالباً

ما يهدئ من روعها كما يحدوها الأمل بالله بأن يعود كما عاد زملاؤه من المهاجرين .وبالنسبة لجمعان كانت خمس عشرة سنة كافية لأن تجعله يتخذ قرار العودة فهو يدرك أن والديه اللذين يتابع أخبارهما خلسة من المسافرين في لهفة للقائه ويشفق أكثر على أمه التي دائما ما يتذكر احتضانها له والدفاع عنه والتخفيف من معاناته . وهكذا – مع عوامل أخرى – يقرر جمعان العودة ويعم الخبر ويكاد الأب يطير من الفرح فرمزية العودة عنده أكبر من مجرد احتضان الأب لابنه بعد غيبة طويلة مع ما يعنيه ذلك من مشاعر إنسانية عظيمة؛ إنها ملحمة حية موغلة في أحشائه ممتدة في شرايينه حاضرة مع نبضات قلبه.

وهكذا عاد جمعان بلا مال ولا بنين فقد كان العهد به كما يقال في حافتنا أنه يصرف على نفسه في أيام غربته بخط متوازٍ مع ما يتصدق به إلى أن تكتمل إجازته ويعود مرة أخرى إلى عمله ثم تعيد القصةُ سيرتَها الأولى. بالنسبة لأسرة جمعان عُدَّ رجوعه وهو سليم الجسم أكبر عطية من الله تهون بعدها الأمور الأخرى والجميع في

أسرته وحتى في حافتنا كان يحدوه الأمل أن تبدأ قصة جديدة في حياة جمعان وافترضوا (ترجيل) الغربة له كما يقال وكان الأب يعرض بسخاء كل الفرص أمام جمعان فقد فتح له متجرا للأواني المنزلية، وتم اختيار زوجة جميلة له

وعلى الرغم من كل ما أحيط به من مغريات ورعاية ليبدأ حياة جديدة وكريمة، لم تمض الأمور على الوجهة المرجوة ذلك أن الأساسات الضعيفة لا تتحمل أثقالا فوق أثقالها، فجمعان الصغير فقد طفولته عندما أريد له أن يكون رجلا، وجمعان الكبير بدأ في البحث عن طفولته عندما صار رجلا ، وربما تكمن في ذلك عقدة جمعان الرئيسة حسب رأي بعض النابهين في حافتنا؛ لهذا عاد جمعان إلى هواجسه غير المعروفة ثم إنه وبدون سبب معروف طلق زوجته وصار يُرى في بعض الأوقات ضمن عمال البناء ينفق على نفسه من عرق جبينه رغم أن الطعام متوفرٌ في بيت أبيه ثم يغيب عن الأنظار لأيام وأحيانا لأشهر وتشتعل الإشاعات والتخمينات؛ البعض يقول إنه يأوي ليلا إلى بيت إحدى العاهرات الكائن في ركن قصي

من المدينة، وبعضهم يقول إنه ينام في المساجد التي يتطوع أحيانا في نظافتها. ثم أُبتليَ جمعان بشرب الخمر الذي كان يباع علنًا في المدينة وأحيانا يسقط في قارعة الطريق ويصل إلى حالة من الإزراء التي تستحق قدرا من الشفقة يفوق كلمات التوبيخ وقرارات العقاب، وتصل الأخبار إلى أسرته وتعرض عليه بحنان المكوث في البيت مع ترك الحرية الكاملة في الحركة.

وقد تأرجحت الحال بجمعان فتارة يعود إلى حياة الضياع وتارة أخرى تجده في زوايا مسجد المشهور يمعن في الذكر والدعاء وعندما تُوفيَ والده شوهد لأول مرة يبكي بحرقة لافتة وينفتح بذلك في حافتنا مجال القيل والقال ولاسيما من يخوضون في حياة الناس ... يقول البعض إن جمعان كان يبكي بحرارة؛ لأنه يشعر بأنه فشل في تحقيق أمنية والده فهي بهذا دموع ندم وحسرة وليست دموع فراق وحزن والبعض يقول إن الدموع عبارة عن خليط من هواجس وذكريات ربما دارت في رأسه تداخلت فيها مراحل حياته غير المستقرة ولاشك أن الناس سيقولون الكثير وستظل دموع

جمعان سرا من أسراره البعيدة لكنه أراد -كما يبدو- تبديد بعض الغموض وذلك عندما تعمّد لبس عمامة والده ذات اللون المميز فربما أرادها إشارة ضمنية تخرس بعض الألسنة بإظهار تعلقه بوالده رغم أن ذلك لم يكن واضحا في الأيام الخوالي

وهذا المستجد في حياة الأسرة لم يغير شيئا من حياة جمعان فقد احتضنه إخوته وتركوه يمارس هوايته في العمل الشاق رغم أن صحته أحيانا تعوق حركته لكن الجديد أنه بعد وفاة أبيه ظل لصيقا ببيت والده المجاور لدكان عبد نصيب وهذه الوضعية جعلته قريباً من حركة الأطفال وترددهم على الدكان لشراء حاجاتهم من بضاعته المخصصة للصغار، وعندما يجد جمعان أحد الأطفال قد عجز عن شراء ما جلبه أنداده يسهم بتغطية العجز.

وأشهر ما اشتهر به جمعان في حافتنا هو الصمت مع كثرة التمتمات الداخلية ولعله بذلك الخطاب الداخلي يعوض عجزه عن التواصل الطبيعي مع الآخرين وفي الواقع لم يكن جمعان بحاجة إلى هذا التواصل فلا أصدقاء يجالسهم ،ولا شلة معروفة يجتمع بها،

ولهذا دائما ما يخاطب جمعان جمعان وبعيدا عن توقعات الفضوليين واستنتاجاتهم في الحوار الجمعاني الداخلي فإن صمت جمعان وتفاصيل قصته ظلت ملكا من أملاكه واستقرت في خزانة صدره التي ليس لها من قرار.

وهو وإن جنح إلى الصمت الاختياري لكنه حافظ على مسافة غير بعيدة مع الناس وكان العمل وكسب الرزق بعرق الجبين بالنسبة له قيمة كبيرة وهذا مما أسهم في تقدير أهل حافتنا واحترامهم له، وأحيانا يشاهده أولاد حافتنا وهو يرد عطية لمحسن من المحسنين ظنّه لتواضع هيئته في حاجة إلى المساعدة لكن جمعان يرد العطية بإباء وعزة ممزوجة بحالة من الانزعاج والارتباك فسّرت بأنها ردة فعل سريعة لشعوره بالإهانة غير المقصودة.

وعلى النقيض من جمعان يحكي أولاد حافتنا قصة المريض (مبروك) العصية على الفهم... يقع بيت مبروك بالقرب من جابية (حطبينة) التي تقع خلف مستشفى المدينة (باشراحيل) وقد جاءت المشاهدة الحية لمبروك بعد قصة كثيرًا ما تروى في حافتنا فقد اعتاد

أولاد حافتنا اصطحاب الشياه (الراغبات) في الحمل والولادة إلى منطقة سكن مبروك لغرض الزواج من تيس وُقِف صدقة على هذه العملية وفي مثل هذه الحالة غالبًا ما يتفق عدد من الأولاد على توقيت محدد للانطلاق، ويجد عبد نصيب في هذا الحشد فرصة للتعليق وإشاعة المرح. المهم ما إن يصل الوفد بالراغبات بالزواج من العريس (المحظوظ) حتى تتم الدخلة الجماعية بمشاهدة الفضوليين ويقدم أصحاب الشياه للعريس (عنتر) على سبيل الدعم العضلي حزمة من البرسيم بينما يكتفي البعض الآخر بمبلغ زهيد من المال كنوع من الامتنان وليس الأجر؛ لاستمرار الوقف وتعزيز صحة بطله المغوار.

ويقول أولاد حافتنا إنهم وبينما هم في انتظار دور شياههم انفتحت فجأة نافذة في غرفة تابعة لأصحاب (العريس) وشاهدوا رجلًا ناصع البياض ضخم الجثة وما إن لمحهم حتى انقض بحركة عنيفة على النافذة وأعاد غلقها بإحكام .أما من هو هذا الرجل فهو (مبروك) تلك الشخصية الغامضة شبه الأسطورية ذات الحكايات

المتناثرة. لكنه حتى جيرانه المقربون لا يعرفون شكله أو ملامحه ويقال إنه انتقل من حافة بعيدة ومكث في بيته الجديد مع زوجته مدة تتجاوز العشرين سنة خلالها لم يغادر البيت ولم يسمح لأحد بزيارته فضلا عن مشاهدته وكانت حلقة الوصل بينه وبين العالم الخارجي هي زوجته الوفية وهي الوحيدة التي تعلم سر العزلة الاختيارية له، وصار بينهما كما يقال نوع من تبادل الأدوار فهو يجهز بعض المقليات المعروفة في المكلا مثل الباقية والسامبوسا والباخمري وغيرها من المعجنات وتقوم زوجته ببيعها، وفي غيابها يقوم بتنظيف البيت وربما تجهيز وجبات الطعام .

ولحين من الزمن غطى خبر مشاهدة أولاد حافتنا لمبروك على جميع الأخبار وبدأت أسئلة الفضوليين تتوالى: ماذا كان يلبس؟ كيف هي هيئته العامة؟ ما لون شعره؟ هل هو ذو لحية؟ كم طوله ؟ كيف كان تصرفه بعد مشاهدتكم له؟.....إلخ من هذه الأسئلة التي لا تنتهي عند الفضوليين لكن التساؤلات التي لم تجد لها إجابة تشفي الغليل وتشبع الفضول هي تلك المرتبطة بقصة مبروك في

الانعزال عن الناس بهذه الطريقة الغريبة الصارمة، وعندما فتحت أبواب التخمينات في حافتنا حول قصته جاءت المحصلة الأخيرة في غير صالحه لأنها اعتمدت في مجملها على الخيال مع تعمد الرواة ذكر الإضافات الأسطورية المثيرة للمتابعة والتشويق، ولعل من حسن حظه أنه لم يسمع هذه الترهات فقد طلق مبروك الناس بالثلاث، وكانت زوجته سندًا له على الثبات.

وهكذا توارى مبروك عن النجوم، واستوطنته الشحوم واللحوم بينما انشغلت حافتنا بقصص جديدة تخفف عنها الهموم، وإذا بالشياه تعود إلى حافتنا بلا آثام محملة بأثقالها التي في أحشائها أو هكذا كان الأمل بعد مشيئة الله في عنتر، وعادت الشمس من جديد بعد تسلقها الجبال الشاهقة وصمتت الديوك، وفي المقاهي الشعبية المكلاوية يسمع أصوات عمال البناء مدةَ احتسائهم الشاي المخلوط بالحليب قبل انصرافهم إلى أماكن عملهم. في هذه الأثناء غالبا ما يكون عبد نصيب في قمة نشاطه وحيويته أو هكذا يبدو للناظرين .....

المحتويات

تصدير : ..... نجيب سعيد باوزير ٧

تقديم : ..... أ. د. عبد الله حسين البار ١٣

أولاً : صدى السنين على مشارف الخمسين

- البداية ترددات ناصرية ٢٧
- نحيب المدارس ٢٩
- صخب السبعينيات ٣٣
- ضوضاء منتصف الطريق ٤٠
- طلقات طائشة ٤٤
- حضرموت... خرير وهدير ٤٧
- صدى من صدى ٥٦
- الصدى وآخره ٦٠

ثانيًا: من يوميات مدرس في الأرياف

- في رحاب جول الريدة ٦٥
- حجر العالية ٨٠

ثالثًا: مسيرة النجاح.. معوقات ومقترحات

- (شذرات من التجربة الذاتية) ٩٧

رابعًا: مشاهدات ووقفات

- الضامن ١١٠
- الناموس... عند الإنسان والجاموس ١١٣
- سيبي ما سيبي ١١٨
- جمهورية الجمهوريات الكونفدرالية المتحدة..... ١٢٣
- صاحب العظمة ١٢٧
- بشيش على أم اللبن ١٣٠
- السلاطين القعيطيون... عن كثب ١٣٥
- بو قمر... الله الله في الأمانة ١٤١
- جدة... قبل البداية ١٤٥
- الشيخ بن عبيد... زمام المبادرة ١٤٩
- الحكاؤون المكلاويون ١٥٦
- جولة في حصون حكام حضرموت وقصورهم ١٦٦

خامسًا: مع أولاد حافتنا

- دكان عبد نصيب ١٧٥
- مركب بقيق ١٨٣
- أقمار حافتنا ١٨٩
- اسأل مجرب ولا تسأل طبيب ١٩٧
- الحذر ولا الشجاعة ٢١٠
- دكة بوبك ٢١٩
- حافتنا ... أسرار وخفايا ٢٢٧